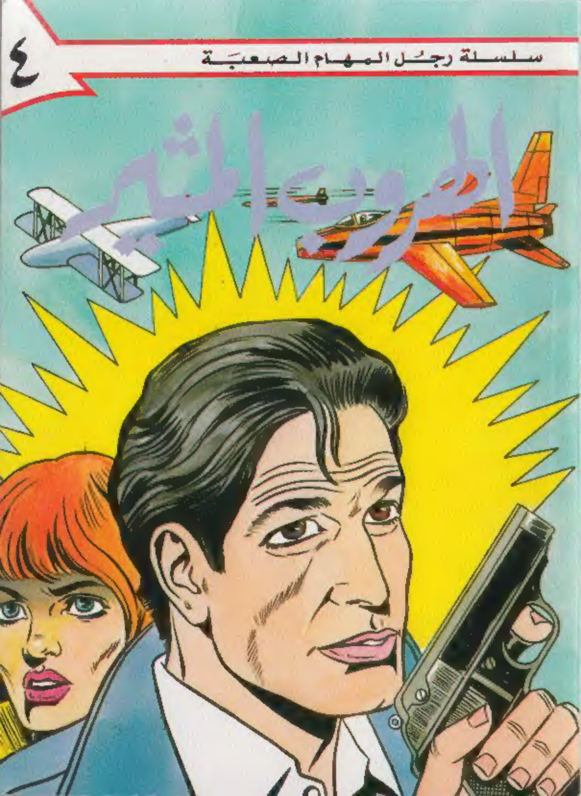
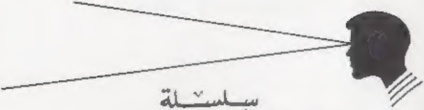

٤
سلسلة رجل المهام الصعبة
الهروب المثير

الهروب المثير

دار الجيل
للطبع والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

ص.ب ٨٧٣٧ - برقياً: دارجيلاب - تلكس: ٢٣٤٣٠ دار الجيل



سلسلة
رجل المهام الصعبة

المغامرة الرابعة

الهروب المثير

تأليف : مجدي صابر

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
١٩٩١

رجل العمليات الخاصة :

انها سلسلة جديدة حافلة بالاثارة والمغامرة نقدّمها لك أيها القارئ العربي الكريم..

ففي ظل عالم بات يعتمد كثيراً على أجهزة مخابراته ووسائلها السرية لتحقيق أهدافه.. وفي ظل ما يسمى بحرب المخابرات السرية.. وفي ظل أقصى درجة من المهارة والذكاء يبرز اسم « ماجد شريف ».. فهو طراز جديد فريد لا مثيل له في عالم المخابرات..

واذا كان « جيمس بوند » هو اسطورة الغرب في دنيا المخابرات.. فإن « ماجد شريف » هو الأسطورة القادمة من الشرق.. من الوطن العربي الكبير..

فهو الرجل الذي لا يقهر.. والذي يدخره رؤساؤه للحظة الأخيرة.. حيث لا يكون هناك حل آخر غير « ماجد شريف »..

ولم يحدث أن خيّب « ماجد » أمل رؤسائه فيه أبداً..

بسم الله الرحمن الرحيم

« في الأسر »

احاط رجال المخابرات الروسية «K.G.B» « بماجد » من كل جانب وقد صوّبوا مسدّساتهم نحوه وظهرت في عيونهم نظرة قاسية أشدّ برودة وصلابة من الجليد السميك تحت أقدامهم. وعلى مسافة قدم واحدة ارتمى « ماكس » المزيّف ضابط المخابرات الروسي مصاباً بطلق ناري، عندما اطلق زملاؤه الرصاص على « ماجد » ليحاولوا منعه من الفرار، فأصابت رصاصتهم زميلهم الذي حاول خداع « ماجد » على أنه « ماكس » والذي سافر « ماجد » من القاهرة إلى « موسكو » ليحصل منه على ميكروفيلم هام جداً، يصوّر موانئ الأعداء البحرية وخطوط ملاحة غواصاته وملاجئه البحرية السرية، وغيرها مما يتعلّق بقوّته البحرية(١).

وكان من ضمن شروط « ماكس » ألا يسلّم « ماجد » الميكروفيلم قبل أن يقوم « ماجد » بتهريبه من « موسكو »، والتي

(١) اقرأ بداية هذه المغامرة في قصة : « المهمة المستحيلة ».

كانت تطارده فيها ثلاثة أجهزة مخابرات.. الأمريكية والروسية ومخابرات الأعداء التي سرق منها « ماكس » الميكروفيلم وحاول بيعه إلى السفارة المصرية في « موسكو »، وهناك صار أشبه بفأر في المصيدة بعد أن سُرق منه جواز سفره، فلم يستطع مغادرة « موسكو » ولذلك سافر « ماجد » إلى هناك لمساعدته في الخروج من روسيا.

وقامت المخابرات الروسية بخدعة ماكرة، فقد بدّلت « ماكس » الحقيقي بآخر مزيّف لخداع « ماجد »، وتظاهر رجال المخابرات الروسية بمطاردتهما في أكثر من مكان، واكتشف « ماجد » خلال تلك الفترة حقيقة ضابط المخابرات الروسي المزيّف فأخفاها.. وفي القطار المتّجه من « موسكو » إلى « لينينجراد » حاول « ماكس » المزيّف القبض على « ماجد »، ولكن « ماجد » قفز معه خارج القطار المليء بالضباط الروس.. واصيب الضابط الروسي برصاصة من زملائه، وكان آخر ما نطق به اسم راقصة الباليه الروسية الأولى « ايفانا بافلوفتش » عندما سأله « ماجد » عن مكان ومصير « ماكس » الحقيقي الذي قبضت عليه السلطات الروسية.

تبادل بعض الضباط الواقفين الحديث بلهجة غاضبة باللغة الروسية التي كان « ماجد » يجهلها، ووضح في نبرة أصواتهم أن غضبهم كان بسبب موت زميلهم، والذي لا بد وأنه ضابط برتبة كبيرة وإلا ما طرفت عيون زملائه لموته خوفاً من المسؤولية والمساءلة..

فإن وفاة ضابط مخابرات في احدى العمليات هو أمر لا يثير مثل هذا اللغط والغضب، إلا إذا كان ضابطاً برتبة كبيرة.

تقدّم أحد الضباط من « ماجد » وتفرّس فيه بعيون ضيّقة متجهّمة، وتذكّره « ماجد » على الفور، فقد كان نفس الضابط الذي أوقفه و « ماكس » المزيّف أمام الأوبرا وحاول تفتيشهما.. الضابط ذو العينين الزرقاوين كموج البحر!

لوح الضابط « لماجد » لينهض فأطاعه في صمت.. وتقدّم الضابط منه وأجرى تفتيشاً له واستولى على مسدّس « ماجد » ووضعه في جيب معطفه.

وأخرج الضابط من جيبه الآخر قيوداً حديدية وضعها حول يدي « ماجد » وأغلقها، واستسلم له « ماجد » بهدوء فقد كان يعلم تمام العلم أن أي محاولة للمقاومة سيكون نتيجتها طلقات ما يزيد عن ثلاثين مسدّساً مصوّبة إليه، وأنه ليس أحب للواقفين حوله من قتله وتحويل جسده إلى مصفاة من ثقوب الرصاص انتقاماً لزميلهم القتيل.

وحلّقت طائرة هليكوبتر كبيرة فوق المكان، ثم هبطت على مسافة من ضباط المخابرات وأسيرهم، فهتف الضابط في « ماجد » بخشونة بالانجليزية : هيا أيها الثعلب.. اصعد إلى الطائرة..

تقدّم « ماجد » من الطائرة وصعد داخلها وخلفه عشرة من رجال

المخابرات على الأقل، وساد الصمت جوف الطائرة العمودية وقد عاودت التحليق وانطلقت إلى جهة مجهولة، وأخفى رجال «K.G.B» مسدّساتهم في ستراتهم وإن ظلت اصابعهم قابضة على زنادها في جيوبهم، وعيونهم القاسية مصوبة إلى « ماجد » بنظرات حادة قاسية لا تطرف لها رموشهم.

وجّهت الطائرة وجهتها نحو « موسكو » عائدة، وعرف « ماجد » أنه سيساق إلى أحد أماكن المخابرات الروسية حيث سيجرى استجوابه.. أما مصيره فكان معروفاً ومؤكّداً ولا يزيد عن احتمالين، إما النفي إلى « سيبريا » ليقضي بقية عمره وسط الجليد يشق الأنفاق لأنابيب الغاز والبترول.. وإما القتل والتصفية بعد محاكمة سريعة من المؤكد ادانته فيها.

فلم تكن المخابرات الروسية لتأخذها شفقة أو رحمة بعميل أجنبي قُبض عليه يمارس نشاطاً معادياً فوق أرضها، خاصة إذا تسبّب هذا العميل في قتل أحد ضباطهم، وهناك مثل روسي شهير بأنه عندما يقع أحد الجواسيس الأجانب في قبضة المخابرات الروسية، فمن المؤكد أن عيناً أخرى لن تقع عليه بعد تلك اللحظة!

كان « ماجد » يدرك كل هذه الحقائق، ولكن ذرة في قلبه لم يساورها الخوف أو القلق، فهو لا يخشى الخطر أياً كان مصدره.. سواء كان خلف الستار الحديدي أم في أي مكان آخر في العالم، وعندما يمتهن أحد الرجال هذا العمل، فهو يدرك أنه يحمل روحه

بين يديه ويقامر بها في أي مكان يذهب إليه لأداء مهمة ما.

ولم يكن « ماجد » ممن يدركهم الخوف أو القلق حتى في أسوأ الظروف..

وسرعان ما استعاد « ماجد » روحه المرحة الساخرة، والتفت باسماً إلى ضابط المخابرات ذي العينين الزرقاوين قائلاً: يبدو أن هناك حفلة معدة لاستقبالي.

وجاوبه الضابط بلطمة قاسية من كعب مسدسه فوق جبهة « ماجد »، فسال خيط رفيع من الدماء فوق حافة جبهته. ومسح « ماجد » الدم بيديه المقيدتين وأكمل بعض الابتسامة. حسناً لقد تم قص شريط الافتتاح الأحمر!

ضاقت عينا الضابط أكثر وقال بلهجة باردة: سوف تعض أطرافك ندماً وقهراً على اليوم الذي فكرت به في دخول هذه البلاد

وبعض الروح الساخرة أجابه ماجد: إنك تسيء الظن بي أيها الرفيق، فإن متعة رؤيتي لك وحديثي معك تجعلني أتغاضى عن أي تفاهة أخرى!

حدّق الضابط في « ماجد » بصمت وقسوة وشيء من الدهشة، كان قد قرأ الملف الخاص « بماجد » والذي يقول إنه أخطر رجل مخابرات في مصر والشرق الأوسط، وإنه أحد رجال المخابرات القلائل الأفذاذ في العالم.. ولكنه لم يكن يعرف كيف يمكن لرجل

ولو كان من أفضل رجال المخابرات في العالم أن يواجه موقفاً يائساً مثل تلك السخرية واللامبالاة

قال «محمد» وهو يواصل سخريته الدائمة من هذا الضابط: أيها الصديق إن صاحب وجهك يبتسم له حقاً!

رد الضابط بغضب مرموق: سوف تجعلك تنسى ابتسامتك للأبد أيها الرفيق، ومن ثم سيكون مصيرك جهنم بكل تأكيد!

رد «محمد» بسخرية أشد: سيكون هذا أمراً مؤسفاً حقاً، لأنني سأضطر إلى تحمّل صحبتكم هناك بكل تأكيد!

عضّ الضابط على شفته غيظاً وقهراً، ومضى، وكانت الأوامر الصادرة له قد اضطرته إلى تجربة معاملة ذلك الرجل الساخر اللعين، وكان قد أذاقه من صنوف العذاب ما لم يحتمله قط، ولكن الأوامر كانت محددة في الفصل عنه حتى، ولا شك أن هناك مصيراً سيئاً ينتظره بكل تأكيد

انحرف الضابط بعينيه عن «محمد»، وتشاغل بالتطلع من نافذة الطائرة العمودية، وحلقت الطائرة فوق أحد المباني العتيقة التي كستها الثلوج وأخفاها من الخارج صف من الأسوار الحديدية العتيقة، وصف آخر من الأشجار الضخمة التي تمثل أفضل ستار وحماية للمكان، ولم يكن هناك أثر لمسئولين بالقرب من هذا، مما يقطع بأن المرور في ذلك المكان كان ممنوعاً لأهميته، وكان هناك

عشرات من أصحاب معاطف الثقيلة وسقطت القبعة حول المبنى قد دسوا أيديهم في جيوبهم المنتفخة. وتأكد «ماجد» أن ذلك المبنى لا شك يتبع مخابرات روسيا في «موسكو». عندما نظر إليه نظرة سريعة من نافذة طائرته وشرعت الطائرة في هبوط حتى حطت فوق سطح المبنى، وتوقفت مراوحها عن الدوران وسكنت عن الحركة.

أشار ضابط «ماجد» بمسدسه نحو باب الطائرة فغادرها يحيط به رجال المخابرات المسلحون، برغم قيوده التي كانت تشله وتمنعه من أي مقاومة، وكان يستحيل عليه الخلاص منها

واستقبلتهم مجموعة أخرى من رجال ذوي الوجوه الباردة المتجهّمة والياقات العالية..

وتسلمت المجموعة الثانية «ماجد» وسارت به إلى سلم ضيق يهبط إلى قلب المبنى ذي الحوائط الحجرية الباردة، والذي كان مظهره يقطع بأن عمره لا يقل عن مائة عام

وانتهى بهم السير إلى حجرة واسعة خفيفة الإضاءة. وأشار أحد الضباط لـ«ماجد» أن يجلس فوق أحد المقاعد فأطاعه في صمت، ووقف الضابط قبالة «ماجد»، فقال وهو يدعك معصميه مكان القيود

هذا تقدّم جيّد.

رد الضابط ساخرًا: لأنك لن تتمكّن من الفرار على أي حال

وأعدك بأنه عندما تخرج من هنا لن يكون بك عضو واحد سليم.

رد ماجد: هذا أمر مؤسف حقاً. فكيف سيمكنني عندئذ أن أوقع على دفتر الزيارة هنا وأسجل شكري على حسن ضيافتكم؟

أجابه الضابط ساخراً: سيكون من دواعي سرور الحانوتي الذي سيتولى دفنك أن يسجل توقيعك عوضاً عنك!

واتجه الضابط خارجاً وقد عاد وجهه لتقلص أشدّ مما كان فتبعه بقية رجاله وتركوا « ماجد » وحده في الحجرة المتسعة.

ولم يكن « ماجد » ليشك بأن هناك أكثر من كاميرا تلفزيونية تقوم بتصويره وبعكف عشرات الرجال على مراقبته وتسجيل كل حركاته. أما أي محاولة للهرب فلن تقابل إلا بطلقة رصاص لن تخطئ هدفها، أو دفعة غاز سام تقضي عليه في لحظات!

وكان من المحال على الإنسان أن يفكر في الهرب من ذلك المكان، الذي يبدو كما لو كان قلعة تحيطها عشرات الأسوار ويكمن الموت داخل كل شبر فيها. وقدّر « ماجد » أن أفضل ما يفعله هو الانتظار، ولا شيء آخر.

فجأة انطفأ النور الضئيل في الحجرة وسادت العتمة. وبعدها بثانية ظهر ضوء ساطع باهر قوي مسلّط نحو وجه « ماجد » من السقف، فحمى « ماجد » عينيه بيديه من الضوء القوي. وبعد

حططت أرح يديه وبدأ يعتاد الضوء الباهر المسلّط نحوه

كانت تلك إحدى وسائل المخابرات في إجهاد أي شخص يستجوبونه، وكان من السهل على «ماجد» أن يغادر مقعده ويتخلص من ذلك الضوء المزعج و..

وقبل أن يتحرّك قيد أنملة أحاطت بمعصميه قيدان حديديان ظهرا فجأة من مسند المقعد الذي كان يجلس فوقه لتمنعاه من الحركة

وكان على «ماجد» الانتظار والصبر.. إنه على الأقل لم يفاجأ وكان أكثر ما يضايقه في تلك اللحظة، ليس كونه مقيّدًا أو معرّضًا لضوء مزعج باهر أو مصير مجهول، بل فشل ما حدث لأحمد، فقد تمكّنت المخابرات الروسية من خداع جميع والقبض على «ماكس»، وربما الحصول على الميكروفيلم منه، وكان هذا أسوأ ما في الأمر كله

وفجأة تعالى ضجيج قوي لأصوات متنافرة عالية صاخبة تصب كلّها في أذنيه كأنّما سُلّطت عليها عشرات الميكروفونات.. أصوات كأنها خليط من الصرخات الحيوية وصرير عجلات القطار واندفاع الطائرات الأسرع من الصوت، كأنها تصير خلف أذنيه بدويّ هائل رهيب

أدرك «ماجد» أنهم يريدون تحطيمه وشل مقاومته وإنهاك قواه

قبل استجوابه. وكان عليه أن يتماسك ويبدو قوياً برغم كل الظروف.

وأغمض عينيه لكن الضوء الباهر يقتحمهما كأنه يراه بعيون مفتوحة، وكانت الأصوات الهادرة تدوي في أذنيه كأنها تكاد تصيبه بالصمم.

وكان عليه أن يستخدم أنجح الوسائل في التحرر من تلك المحسوسات المادية حتى لا تؤثر على حواسه وإدراكه فتصيبه بالانهيار.

وببطء حاول أن يصفو ذهنه، أن يسمو به إلى عالم حر وبهدوء شرع عقله في التحرر، وبدأت حواسه تعود إلى صفائها، وتدريجياً لم يعد الضوء القوي يؤذي عينيه كأنما لا وجود له، ولم تعد الأصوات الهادرة المتفجرة تصل إلى مسامعه كأنها مُحيت من حوله.

استرخى «ماجد» فوق مقعده وهو يمارس «اليوجا». إنها الشيء الوحيد القادر على انتزاعه من كل تلك المعاناة والمحسوسات المؤلمة حوله.

وكانت هناك أسئلة معلقة لا تزال شائكة، أين ذهب «بروس ماكس» الحقيقي، وهل استولوا منه على الميكروفيلم، وهل لا يزال حياً أم أنهم تخلصوا منه بطريقة ما، وما هي علاقة راقصة



لبابيه « يفان بافلوفتش » بالأمر، ولماذا تعلق ضابط مخابرات الروسي باسمها قبل وفاته، وهل تعلم الـ «RGB» بتورطها في الأمر بصورة ما؟

وما لبث الأسئلة كلها أن تلاشت من ذهنه لدى غيبته في عالم آخر وشمل روحه هدوء وصفاء عجيبين كأنه يسبح في بركة مياه تحيطها الورود والأزهار فوق ربوة عشبية أو كأنه يحلق بجناحيه فوق العالم كله في استرخاء ودغدغة لذيذين.

ومر الوقت.. وانفتح باب الحجرة فجأة بصوت مسموع، ففتح « ماجد » عينيه وقد استعاد وعيه في نفس اللحظة

وفي مدخل الباب ظهر الجنرال « بتشكو » الرجل الدموي الرهيب في جهاز مخابرات الروسي!

وكان « ماجد » يعرفه حق المعرفة فقد اطلع على صورته قبل مغادرة القاهرة، وكان يعرف أن ذلك الرجل من أكثر رجال المخابرات في العالم قسوة وبراعة، وأنه لا يؤمن بشيء في حياته اسمه الفشل، وأن أقل هفوة من رجاله يكون مصيرها الموت المؤكد، حتى أن كافة أجهزة المخابرات في العالم تطلق عليه « الجنرال الدموي » وتخشاه وتحسب له ألف حساب

ولم يكن « ماجد » يظن أنه يمكن أن يحظى باهتمام رجل مثل « باشكو »، وعندما رآه في مدخل حجرة أدرك متأخراً أن تلك العملية التي أقحم نفسه فيها في تلك البلاد تعني أشياء هامة جداً للروس، أكثر مما قدر لها، وأن مصيره لم يعد يحتمل أي شك!

* * *

« الجنرال الدموي »

خفق الصوت الجهوري القوي حين سمعه صدّه عنده، وخفق صحيح لأصوات غالبة خطاه فهو الجنرال «مشكو» في مدخل الحجرة

تقدم الجنرال من «ماجد» وهو يتفرس فيه في هدوء وبعض، شأنه شأن مفترس يوشك أن يلتهم فريسته حالاً بعد أن أمن من وقوعها بين مخالبه واستحالة نجاتها!

كان الجنرال ضخم الجثة ذا جسد قوي ووجه عريض مستدير وصلعة تامة الاستدارة تكشف عندما خلع القبعة المصنوعة من فرو الثعلب ووضعها فوق المكتب. وكانت له عينان ضيقتان لعينتان كأنهما دوّامة رهيبة لا قرار لها، لا يجرؤ إنسان على الدنوّ منها أو الغوص في أعماقها.

وظهرت دهشة حقيقية في عيني الجنرال عاسمعن عندما استقبله «ماجد» قائلاً :

من المؤسف يا سيدي أنني لا أستطيع النهوض للترحيب بك ، فالمرض لا يمنح الجنرال «دشكو» كل يوم فهذا شرف عظيم

خفت الدهشة لنفسه من وجه الرجل الدموي الذي توقع أن يجد «محمد» منهار مشتت الأحاسيس، وبسرعة تمالك نفسه وقال بصوت عميق أجوف :

لا تهمني الرحلة المرحة .. وربما كان هذا هو السبب في رغبتي لإلقاء نظرة عليك.

— إنني سعيد الحظ أيها الجنرال لأحظى بهذا الشرف .. سوف أذكر ذلك بسرور دائماً في مستقبل أيامي

— لن تتمتع كثيراً بمستقبل أيامك .. فمن يزورني لا يعيشون طويلاً لينعموا بهذه المتعة!

وضغط الجنرال فوق زر صغير في ظهر مقعد «محمد» فتحررت يداه من قيودهما، وجذب الجنرال مقعداً وجلس أمام «محمد»، وأشعل سيجاراً كوبياً فاخراً أخذ منه نفساً عميقاً وقال وهو يتصنع في لحظة بصره .. إنني مندهش .. كيف اكتشفت حقيقة كولونيل «سيرجي»؟

— إذن فقد كان «ماكس» المزيف كولونيلاً .. إن هذا يدل على شدة اهتمامكم باستقبالي .. وإن دهشتي لتزداد عندما

أعلم أن كولومبيا بجهازكم يمكن أن يحصي مثل تلك الأخطاء التافهة. إن هذا يدل على أن جهازكم بحاجة إلى اعادة تقييم.

اكتسح الغضب وجه الجنرال، فلم يكن سهلاً على الرجل الحصير بجهاز عظيم القوة كالمخابرات الروسية أن يسمع نقداً بمثل تلك الصورة، وسرعان ما تلاشى الغضب ليحل محله قسوة طاغية، وقال الجنرال ببطء:

حسناً.. هذا تقي الوفيو «سيرجي» حراءه ولن تذكر في ملفه إلا كل ما هو جيّد.

ماجد: ما يدهشني يا سيدي هو اهتمام رجل كثير الانشغال مثلك بأمر تافه كالذي جئت لأجله.

— لن تندهش إذا علمت أن هذا الميكروفيلم شديد الأهمية بالنسبة لنا. وربما تزيد أهميته لاقتراب عن حاجتكم إليه.

— لست أفهم يا سيدي.. ما علاقتكم أنتم بالأمر كله. هل لأن الأحداث تجري فوق أرضكم؟

هذا هو أول الأسباب. وهذه هي المرة الأولى التي تجري فيها مثل تلك اللعبة فوق أرضنا. أنت ولا شك تعلم يا سيد «ماجد» أننا دائماً نلعب على غير أرضنا. ولم يحدث

أن يجرؤ أحد على الدنو من أسوارنا، ولكن هذه المرة تغيّرت قواعد اللعبة مما استتبع تدخلنا بكل ثقلنا. إننا لا نسمح بأن يجري شيء من وراء ظهرنا وهذا هو شعارنا دائما. نحن لسنا على استعداد للتخلي عن قوتنا وصدارتنا في هذا العالم، ولذلك ترانا نتصرف بحسم وقوة في هذه المسألة. أما السبب الآخر فهو أن هذا الميكروفيلم الصغير يمثّل أهمية قاطعة بالنسبة لنا. إن صراعنا مع الأمريكيين معروف للجميع وخاصة حرب المخابرات الخفية.. وقد جاء هذا الميكروفيلم إلينا ضائعاً في الوقت المناسب. فقد كنا بحاجة إلى ورقة رابحة في مفاوضاتنا القادمة مع الأمريكان حتى يتخلّوا عن أحلامهم الرامية لجعل الفضاء مستعمرة لهم في خطة «حرب النجوم» التي يزمعون إقامتها في الفضاء

تساءل «ماجد» بحيرة حقيقية: لست أفهم أيها الجنرال العلاقة بين حرب النجوم وذلك الميكروفيلم.

رد الجنرال وهو ينفث دخان سيجارته الضخم: أنت تعلم أن أعداءكم متحالفون مع الأمريكيين وهذا التحالف يشمل كل الفروع العسكرية. ومن جهتنا فنحن نعلم تماماً أن كافة غواصات أعدائكم وملاحتهم الحربية تمت بمساعدة الأمريكان وبواسطة تكنولوجيتهم وخبرائهم ومعدّاتهم. وأن

كل ما يحفظ له عدوكم إنما يتم بتعاون وتنسيق مع القوة العسكرية الأمريكية، وبذلك فإن كشف هذه الخطط والقوة البحرية لأعدائكم، إنما يعني بالمثل كشف الخطط البحرية الأمريكية، لأن الاستراتيجية واحدة في الحالتين.

ظهرت الدهشة على وجه «ماجد» وقال: إذن فهذا هو سر اهتمامكم بالمسألة كلها.. فقد أردتم الحصول على الكمبيوتر حتى تكشفوا أسرار القوة العسكرية البحرية للأمريكيين وما حدث فيها من تطور وتقدم.

— بالضبط.. وهذا سيدفعهم إلى تغيير ملاحتهم البحرية، وخطوط بحارة غواصاتهم السرية في المحيطات وأعالي البحار، وعمل مثل هذا ولا شك سوف يكلفهم كثيراً لأكبر حد.

أكمل ماجد: وبذلك فإنهم سيتحولون حتماً عن برنامج «حرب الكواكب» ويؤخرونه إلى ما بعد تغيير خرائطهم البحرية لأنهم لا يستطيعون أن يقوموا بالعملين في وقت واحد.

— تماماً.. إنه نفس الهدف الذي تسعون أنتم لتحقيقه حتى لا تصبح الضربات تتجه إلى قوة أعدائكم.

ماجد: تدهشني معرفتكم بهذا الأمر يا سيدي، ولا أظن أن أكثر من شخصين أو ثلاثة في جهاز مخابراتنا يعلمون بهذا الأمر، وإني لأتعجب كيف تسرب الخبر إليكم؟

ظهرت ابتسامة فوق وجه مدائري لهاسي لأول مرة وقال:

— ليست كل معلوماتنا نحصل عليها من مصدر مباشر إننا أيضاً نحلل ونستنتج ونتحرك على هذا الأساس فإن جهازنا عالي القدرة.

ومضت فترة صمت كان «محمد» يجهل عن الضابط الروسي من موجهه وكشف هدفه به، فضاقت عيناه في ريبة وهو يتساءل:

— لا أظن أنك جئت هنا لتبلغني تقديركم عن أهمية الميكروفيلم بالنسبة لكم.

— لا طبعاً. إن هناك أسباباً عديدة دفعتني لزيارتك، من ضمنها رغبة في التعرّف على ذلك الشعب المصري الذي هزم جهاز المخابرات الأمريكي في أكثر من مواجهة سابقة، وكذلك مخابرات أعدائكم. إننا نقدّر البطولة وخاصة عندما يحاربون أعداءنا، ويمكننا أن نعتبرهم أصدقاءنا

تجاهل «محمد» ما يلمّح إليه الضابط وقال متسائلاً: وبقية الأسباب؟

— لقد مات ذلك الرجل المدعو «ماكس»!

نطق الضابط الروسي بالكلمات وتراجع فوق مقعده وهو يحدّق في وجه «محمد» ليرى تأثير كلماته عليه

تساءل «محمد» بشك: أهي خدعة أخرى أيها الضابط؟

— وما حاجتنا إلى مزيد من الخداع وأنت في قبضتنا.. بوسعي اطلاعك على جثة الرجل ولكنك لن تستطيع التأكد أبدا لأنك لم تر وجهه من قبل لقد انتزع الرجل جثة « ستايد » كانت مخفاه في ملابسه عندما حاولنا استجوابه عن مكان الميكروفيلم.

- والميكروفيلم أين هو؟

— لقد ذهب السر مع الرجل وفشلنا في معرفة مكان الميكروفيلم منه عند استجوابه.

قطب « ماجد » جبهته وهو يقول : لست أشك في طبيعة استجوابكم له . ولا بد أن الرجل فضّل الموت على التعرّض إلى هذا الاستجواب!

— لسنا نعرف سوى وسيلة واحدة للاستجواب.. ونحن نستخدمها في كل مرة وإذا كان هذا يعني قد انتحر وصدق فمه على السر للأبد، فإن هذا لا يعني أن الميكروفيلم قد ضاع. وإلا ما كنت أنت لا تزال حياً حتى الآن!

ارتسمت ابتسامة ساخرة فوق شفتي « ماجد » وقال إذاً فأنتم تطمعون أن أقودكم إلى مكان الميكروفيلم يا للسخرية وكيف سأقودكم إلى مكانه وقد تسببتم في موت الرجل

الوحيد في هذا العالم الذي كان يستطيع أن يدلني على مكانه؟

— ربما كان في أقوال وتعهدات رئيسك ما يعودك إلى مكان الميكروفيلم حتى بدون مساعدة من « ماكس »

هم « ماجد » بالرد فقاطعه الجنرال بإشارة من يده وقال بلهجة باردة:
إننا على استعداد لأن نصحبك حيث مقابل معرفة مكان الميكروفيلم. سوف نؤمّن لك مغادرة البلاد في هدوء إذا ما أرشدتنا إلى مكانه. إن عميلا أجنبيا لم يحظ بهذا الكرم منا من قبل.

ماجد: يا له من كرم. أتظن أنني لو كنت أعرف مكان الميكروفيلم كنت سأضيع الوقت مع ذلك الكولونيل الغبي الذي تظاهر بأنه « ماكس »؟

صافت عينا الجنرال وزم شفتيه وهو يقول: بل إن هذا هو ما يؤكد لنا أنك تعرف مكان الميكروفيلم. وإلا فما الذي دفعك إلى التظاهر بأنك خدعت في شخصية ضابط مخابراتنا. إن هذا ليس له سوى تفسير واحد، وهو أنك كنت تعرف مكان الميكروفيلم وبذلك جاريت الكولونيل « سيرجي » في خدعته حتى تتمكن من مغادرة البلاد بواسطته، وهو السبب الذي دفعك قطعا إلى ركوب القطار المتجه إلى « سحر د » لتغادر « روسيا » بالميكروفيلم.

وساد الصمت لحظات بعد كلمات الجنرال الروسي، وغمغم دهش «محمد» لسرعة الرد، لقد فسّر الروس تصرّفه تفسيراً آخر فهو قد تظاهر بالغباء خدعة الضابط الروسي عليه حتى تمكّن بواسطته من معرفة مكان «ماكس»، وتظن المخابرات الروسية أنه فعل ذلك لأنه يعرف مكان الميكروفيلم، وأنه واثق من الحصول عليه في النهاية، ولعلهم يظنونه مثله تماماً، لقد أرسل إليه القدر ورقة رابحة ليلعب عليها، وربما تكون فيها نجاته، إن مكان الفيلم لا يزال مجهولاً، لم يعثر عليه أحد حتى الآن، وربما يتمكن هو من الحصول عليه، فقط إذا تمكّن من مغادرة ذلك المكان حياً!

بدد هدوء الحجرة صوت الجنرال وهو يقول: لا أحب الذين يفكرون كثيراً قبل أن يجيبوا على أسئلتي

محمد: ليس لديّ الإجابة التي تريدها أيها الجنرال، إن ما يخصني بلادي على هذا الميكروفيلم فلن يحصل عليه أحد آخر

رمق الجنرال «محمد» بنظرة قاسية وقال: يبدو أنك تجهل وسائلنا في انتزاع ما نريد من معلومات

لست أجهلها يا سيدي، ومن المؤكد أنني أفضل أن أفعل نفس ما فعله «ماكس».

جزّ الجنرال على أسنانه بصوت له صرير، وقال بغضب مكتوم ومن قال لك إننا سنسمح لك بالموت؟ إنه راحة لن تناله

أننا سوف ننقذك من العذاب مما يجعلك تصرخ متوسلا ورحمة.. إن الحبوب ستصرك في النهاية.. ولكن بعد أن ننقذك نحن.. وبعد أن ننتزع منك مكان الميكروفيلم.. إن لنا طرقا رائعة في ذلك وهي لا تفشل أبدا في انتزاع ما نريد في النهاية.

ونهض وهو يحدق في وجه «محمد»، وتقلصت أصابعه في عصبية هائلة وهو يقول: سوف تعرف بعد قليل حتى تسمعه «الحبوب الذهبية».. وأرجو أن تحتمل برنامجي الخاص الذي وضعته لمستضعفين من أمثالك لإقناعهم بالتعاون معي.

وعلى الفور اندفع إلى الحجرة أربعة عمالقة أشداء انقضوا على «محمد» وحملوه خارج الحجرة، وعلى عكس «محمد» سرعته، فقد نجحت خطته ودفع الحراس إلى التأكد من أنه يعرف مكان الميكروفيلم، وكان هذا سيمنحه بضعة أيام حتى على من أن يستطيع مغادرة ذلك المكان بأي وسيلة.. برغم أنه كان يعلم تماما أنه سيلاقي خلال تلك الأيام من العذاب ما لا مثيل له في حياته فسيبقى خلال ذلك الشيء الذي أطلق عليه الحراس اسم «البرنامج»!

« البرنامج »

وكان البرنامج حافلاً..

وتأهّب الجميع لبدئه في التو فقد حمل العمالقة الأربعة « ماجد » إلى زنزانة صغيرة أسفل المبنى كان يؤدي إليها سرداب ضيق أكلته الرطوبة وكانت جدران الزنزانة حجرية صماء بها باب من الصلب يفتح إلكترونياً من الخارج ويستحيل فتحه من الداخل

وقيد العمالقة الأربعة ذراعي وقدميّ « ماجد » في أربعة قيود في الحائط مثبتة إلى حجر دوار ضخم، بعد أن خلعوا ملابسه إلى ما يستره، وعندما حاول المقاومة انقضّ أحد العمالقة عليه وكانت له عضلات هائلة فشلّ حركة « ماجد » . وانقضّ آخر بلكمة ساحقة إلى بطن « ماجد » فأحسّ كأنما أصابت معدته طلقة مدفع وترنّح « ماجد » من شدّة الضربة فعاجله العملاق الثالث بلكمة مباشرة في وجهه ارتجّت لها رأس « ماجد »، وأحسّ كأن أنفه قد تحطّم وهكذا لم تكن له أي مقاومة وهم يقيدونه إلى الحائط في حجر دائري ضخم يبرز من الحائط ويدور حول محوره في بطء

واندفع العمالقة الأربعة يصوّبون لكماتهم إلى بطن « ماجد » وصدره ووجهه، كأنما هم ملاكمون في حلقة تدريب، و « ماجد » هو كيس الرمل الذي يتدرّبون عليه في وحشية.. وراحت لكماتهم تصيب كل جزء في جسده مع دوران الحجر الدائري.

لم يتأوّه « ماجد » ولم يصرخ شأن الكثيرين ممّن يتعرّضون للبرنامج.. فبعد اللكمة الرابعة أو الخامسة تخدّرت أعضاؤه وصار يحسّ باللكمات والضربات كأنها تصيب الجدران خلفه.. وتورّمت جبهته وعيناه وسالت الدماء من أنفه.. ولكنه مع ذلك لم تصدر منه أنّة ألم..

وتوقّف العمالقة الأربعة عن الضرب بعد دقائق يلتقطون انفاسهم.. وظهر الجنرال في مدخل الزنزانة الضيّقة.. وأشار برأسه فعاد العمالقة يكملون عملهم.

وكاد « ماجد » يفقد وعيه من الألم.. وعلى الفور أحضر أحد الرجال الأربعة قنينة كبيرة فتح فوهتها وصبّها فوق جسد « ماجد ».. وأحسّ « ماجد » كأن النار قد اندلعت في جسده، فقد كان ما صبّه الرجل فوق جروحه كحول مركّز أشعل جروحه بالنار.

وجزّ « ماجد » على أسنانه من شدّة الألم، ولكنه برغم ذلك لم يُطلق صرخة واحدة.

وبهذه فقد تحررت « باتشكو » . إن الفرصة لا تزال سانحة أمامك.

ووصلت كلمات رجل المخابرات الروسي إلى « ماجد » مشوشة كأنها تأتي من بعيد وسط غمامات من الألم والضعف. واستمع « ماجد » إليه يقول: لن تحصل مني على شيء؟

ألقى الجنرال سيجارته في غضب وداس عليها بقدمه فسحقها، وهتف في رجاله الأربعة: فلتأخذوه إلى « حجرة الموسيقى » ليكمل البرنامج.

اندفع الرجال الأربعة نحو « ماجد » فحلوا قيوده، ولم تكن لـ« ماجد » قدرة على السير فحمله الرجال الأربعة فوق أكتافهم، وأسرعوا به عبر الممرات إلى زنزانة أخرى وألقوه فيها بعد أن أوصدوا بابها الألكتروني خلفهم.

وكانت الزنزانة شديدة الشبه بالأولى غير أنه لم تكن بها قيود إلى الحائط، وكانت هناك كاميرا تلفزيونية في السقف أتاحت مراقبة السجين أينما اتجه في الزنزانة الضيقة.

ولم تكن لـ« ماجد » قدرة على الوقوف، ولكنه برغم ذلك كان لا يزال متماسكاً، وعليه فقد كان يعلم أن البرنامج لم ينته، وأن هذه ليست سوى البداية، وأن ما أطلق عليه الجنرال « باتشكو » « حجرة الموسيقى » لا بد وأنها تحمل صنفاً آخر من التعذيب.

ولم تكد تمر ثوان قليلة حتى تأكّد « ماجد » من ظنه.. فقد بدأت المياه تتدفق في الزنزانة، وكانت هناك فتحات صغيرة بأركان الحجرة تدفّقت المياه منها وراحت تعلو بسرعة حتى قاربت أن تغطي كتفي « ماجد ».

وهتف « ماجد » هادراً: أيها القساة.. لكم حتى لو أغرقتموني هنا فلن تنتزعوا مني كلمة واحدة.

وجاء صوت الجنرال « باتشكو » من ميكروفون صغير بأعلى الزنزانة قاسياً ساخراً وهو يقول: إن الغرق نعمة لن تحصل عليها.

وتوقّف الماء عندما وصلت إلى مستوى عنق « ماجد »، ثم بدأت الموسيقى تصدح.. واندهش « ماجد » فلم يكن يعرف حتى تلك اللحظة ماذا ينوون أن يفعلوا به.

وجاءته الإجابة سريعاً، فمن مكان ما انطلق تيار كهربائي داخل الماء.. وأحسّ « ماجد » بارتجافة جسده في الماء المكهرب والأرضية المكهربة أسفل قدميه، فشرع يقفز فوق الأرضية بقدميه العاريتين على حين كانت الموسيقى تصدح حوله لتتناسب مع قفزاته وحركات قدميه!

وجزّ « ماجد » على نواجذه من شدّة الألم.. لقد عرف ما هي « حجرة الموسيقى »، وها هو يرقص على أنغامها من شدّة الألم!

راح « ماجد » يقفز ويقفز وقد ارتعش جسده وافتقدت عضلاته فصارتا بلون الدم ولم يكن هناك أي منجاً أو مفرّ كانت اسماء مكهربأ ولكن بقدر محسوب حتى لا يصعقه كانوا يريدون إضعاف مقاومته حتى يدفعوه إلى الاستسلام أو الاعتراف . ولو كان هناك شخص آخر يتعرّض لما تعرّض له هو لأستسلم في الحال واعترف بما يريدون . ولكن بأي شيء يعترف لهم وحتى لو كان لديه ما يعترف به أيظنونه سيعترف لهم ولو أرسلوه إلى الجحيم وليس إلى موسيقاهم المكهربة؟ وبعد قرابة ساعة توقّف سريان الكهرباء في الماء وشرع منسوب الماء يهبط ببطء في الزنزانة وجاء صوت الجنرال « باشكو » وهو يقول إن لك مقدرة هائلة على الاحتمال أيها الشعب ولا شك أن الدارسين في معهد المخابرات سيستفيدون من الفيلم الذي التقطناه لك كنموذج رائع لقدرة الجسد البشري على احتمال الألم، إن آخر العملاء الذين تمتّعوا بموسيقاه انهار بعد عشر دقائق.

تهالك « ماجد » فوق الأرض.. كانت جراحه تؤلمه بشدّة، وكان يحسّ أن جلده ملتهب من الكحول فوق جروحه وبسبب الكهرباء . وكان الألم في أنفه فظيعاً من لكمة عملاق وكاد يشعر كأن النار قد اندلعت داخل عينيه وتمنّى لو أنه أغمض عينيه قليلاً وتمدّد في استرخاء في مكانه . وبالفعل فقد وعيه بعد ثوان قليلة

« المخابرات الأمريكية »

عندما فتح « ماجد » عينيه كان ذهنه مختلطاً مشوّشاً.. كانت ثمة ذكرى بعيدة عن شيء ما يسمّى « البرنامج » وعن حجرة الموسيقى.. وكان ثمة احساس فظيع بالألم لا يزال ناشباً اظافره في وعيه واحساسه الداخلي.

أخيراً استردّ وعيه واستوعبت عيناه الأشياء حوله . كان راقداً في فراش نظيف مغطّى بملاءة بيضاء حتى منتصف صدره، وقد انحنى رجل في معطف أبيض يعطيه حقنة في ذراعه، على حين وقفت فتاة رقيقة الملامح برداء ناصع البياض أمام عربة صغيرة متحرّكة امتلأت بالمقصّات والشاش الأبيض والقطن والمطهّرات

وكانت هناك سلة صغيرة إلى يسار الفراش قد امتلأت بالشاش الملوث بالدماء والقطن المستعمل. راقب « ماجد » الطبيب بصمت، والتفت نحوه الطبيب ببشاشة قائلاً : لقد استعدت وعيك أخيراً .

إن لك بنية قوية جداً ساعدت على تجاوزك مرحلة الخطر وستساعدك حقنة المورفين على تحمّل آلام جروحك

رد ماجد: إن لكم برنامجاً حافلاً وحجرة موسيقية كفيلة بإرسال فيل إلى الجحيم!

طوى الطبيب أدواته داخل حقيبته متجاهلاً حديث «ماجد» وهو يقول: لست أدري عما تتحدث أيها الرفيق. ومن الأفضل أن تدخر قواك لأنك بحاجة إليها.

غمغم ماجد: معك حق... ان باقي البرامج ولا شك ستغري

رمق الطبيب «ماجد» لحظة ثم قال له: سآتي في العاشرة مساء لأغيّر على جروحك وأعطيك حقنة مخدّرة حتى تستطيع تحمّل آلامك والنوم في هدوء.

وعندما همّ بمغادرة الحجرة فتح بابها وظهر بمدخلها الحارس «ماشكو» بسحنته الكريهة، وعلى الفور غادر الطبيب وممرضته الحجرة التي وقف على بابها أربعة حراس يحملون مسدسات شدّوا أيديهم بمدخلها وقد تأهبوا بشدّة للتدخل في أي لحظة

وارتسمت ابتسامة واسعة فوق شفتي الحارس وهو يقول: قد استعدت وعيك أخيراً.. إنني سعيد لأراك في تمام صحتك

قال «ماجد» ساخراً: إنني أتعجب لأجل كل هذه العناية الفائقة،

ولا أظن أن برنامجكم يتضمن أي نوع من أنواعه لطيفة

— إننا سنتحدث حتماً أيها الرفيق. ولن نمكث هنا طويلاً فما إن نسترد جزءاً من قوتك حتى نستردك مرة أخرى

— لا بد أن هناك حفلات موسيقية عديدة تنتظرني على أحر من الجمر لتستمعي موسيقاي الرائعة

— إن لك روحاً مرحة أيها الرفيق. ومن المؤسف أن الموقف لا يحتملها، ولا أنا أيضاً!

قطب «ماجد» حاجبيه ساخراً وهو يقول: أرى مداً جداً في الأمر.
هل هناك من ينافسك في لقب «الحيوان الدموي»، دعني أقل هذا المغرور وقعه يرفض دعوته

قال الحيوان ببطء: لقد وصلت معلومات مؤكدة بأن الأمريكان على وشك الوصول إلى مكان الميكروفيلم. أما كيف ومتى فهذا ما لا نعرفه.

— هذا مؤسف حقاً. ترى أتظن أنني أرسلت حمامة زاجل إليهم لأخبرهم بمكان الميكروفيلم؟

ظهرت القسوة الشديدة في عيني الحيوان «ستشكو» وهتف بصوت به غضب كظيم: قلت لك دعك من اللهجة الساخرة..

إن أشياء كثيرة تتوقف على قدرة الأمريكان في الوصول
إلى الميكروفيلم قبلنا.

ماجد: أتقصد أن تقول إن بقاءك في منصبك يتوقف على هذا الأمر؟

ارتعشت أهداب الجنرال الروسي فأدرك «ماجد» أنه أصاب الهدف في الصميم.

وعاد «ماجد» يقول: إذن فأنا الورقة الأخيرة في أيديكم للوصول
إلى الميكروفيلم قبل المخابرات الأمريكية. يا إلهي. لم
أكن أظن أنني بمثل هذه الأهمية. ويبدو أن هذا هو السبب
الذي جعلكم تأتون بي إلى المستشفى للعلاج.

قال الجنرال بلهجة رقيقة: إنني أعتذر عما حدث أيها
الرفيق. لقد تبدّلت الأمور تماماً.. إنني أعدك الآن أن
أمنحك ما تشاء: حريتك والملايين. وجواز سفر بأي
جنسية لأي دولة في العالم لتعيش فيها إلى الأبد بعيداً عن
كل خطر. إنني أؤمن لك المستقبل تماماً.

أكمل ماجد: والثمن هو الميكروفيلم. أليس كذلك؟

سحق الجنرال سيجارة الفحم بقدمه وهو يقول: نعم

وبعيون ضيّقة شديدة القسوة تساءل: ما هو ردك؟

سادت لحظة من الصمت. وكان على « ماجد » استغلال الفرصة التي أتيحت له بلا انتظار.

ألقى « ماجد » ببصره نحو نافذة الحجرة ذات القضبان الحديدية السميكة وهو يقول: أعطني فرصة للتفكير.

نهض الحراس وهو يقول: أمامك فرصة حتى صباح الغد. إنني لا أستطيع الانتظار أكثر من ذلك.

وتقدم الحراس نحو الباب فقال ماجد: إنك بحاجة إلى إثبات حسن النية على الأقل.

أمسك الحراس بمقبض الباب وهو يقول: سآتيك صباح الغد بدفتر حساب باسمك في بنوك سويسرا بمبلغ عشرة ملايين دولار. وستقلك طائرة خاصة إلى أي مكان في العالم بأي جواز سفر وجنسية تريدها، ولا يمكنني أن أقدم لك أكثر من ذلك. كما أنني لا أستطيع أن أمنحك شيئاً من هذا قبل أن تعطيني الميكروفيلم.

وغادر الحراس الحجرة. وأغمض « ماجد » عينيه. لقد صادفت الفرصة الممنوحة له. وذلك الحراس يظن أنه يعرف مكان الميكروفيلم.. وكان عليه أن يتصرف ويحاول أن يغادر المستشفى في ثمن قبل الصباح وإلا فسينكشف أمره.

غادر « ماجد » فراشه واقترب من النافذة الحديدية. كان يدرك



أن هناك عيناً خفية ترقبه، ولم يكن يريد أن يبدو بمظهر من يفكر في الفرار.

وتظاهر بأنه يمد يديه بلا قصد نحو النافذة وتأكد مما ظنه عندما سرى في أصابعه تيار كهربي صاعق.. كانت النافذة مكهربة.. وكان يوجد خارج البيت أربعة حراس على استعداد لإطلاق الرصاص عند أول محاولة للفرار. وفوق ذلك كله كانت حركاته كلها مرصودة بعيون خفية لا يراها ولكنه كان موقناً من وجودها.

استدار «ماجد» فاصطدم بصره بمرآة صغيرة معلقة فوق الجدار. وهاله ما شاهده في وجهه، كان وجهه مليئاً بالجروح والخدوش وجلده متهيجاً. وكان هناك جرح كبير في جبهته قد غطي بالشاش وسقط بصره نحو ساعديه، كانا يبدوان كما لو كانا محترقين وقد امتلأا بالخدوش.

غلى الغضب في قلب «ماجد». كانت تلك هي المرة الأولى التي يتعرّض فيها لمثل هذا التعذيب وتصيبه الجروح والإصابات بمثل تلك الصورة.

ولكن في موقف لا يتيح له التفكير في أي رد. إن أبلغ رد يوجّهه للحراس الدموي هو أن ينجح في الهروب من ذلك المكان ومعه الميكروفيلم ويعود به إلى بلاده

ولكن كيف وقد مات السر مع « ماكس » أيمكن أن يكون لا يزال هناك أمل لدى « ايفانا بافلوفتش »؟

وتنهّد « ماجد » كانت تلك كلها أشياء سابقة لأوانها وللتفكير فيها وعليه أن ينجح في الهرب من المستشفى أولاً، وبعد ذلك ليكن ما يكون.

تمدّد « ماجد » في فراشه واطفأ النور وحل الظلام بالحجرة كان هذا يتيح له الهرب من عيون مراقبيه وأخذ يتفحّص سقف الحجرة وأركانها العليا محاولاً برغم الظلام تحديد مكان العين التليفزيونية التي تراقبه. ووجد أن أنسب مكان لها لتكشف الحجرة بالكامل هو الركن الأيسر بجوار الباب

وبالفعل نهض واقترب محاذراً وبأيدي خبيرة مدرّبة استطاع الوصول إلى العين التليفزيونية بأعلى ركن الباب، وأمسك « ماجد » بقطعة لاصق صغيرة من اللاصق الذي يغطي جبهته ونزعها ثم لصقها فوق العين التليفزيونية وأضاء النور وهو آمن مطمئن إلى أن مراقبيه لن يشاهدوا إضاءة النور أو أي شيء آخر، وستتكفّل قطعة اللاصق بمنحهم ظلاماً مستمراً فيظنونه نائماً وأن ضوء الحجرة لا يزال مطفأً

وكانت بقية خطة « ماجد » بسيطة فما أن يدخل الطبيب إلى الحجرة لإعطائه الحقنة المخدّرة حتى يفاجئه بضربة تفقده وعيه، ثم يرتدي ملابس الطبيب ويخرج بها، وكانت المشكلة هي

الممرضة، وكان عليه التصرّف معها قبل أن تحاول الصراخ أو الاستنجاد بالحراس الأربعة المسلّحين الواقفين بباب الحجرة

تمدّد « ماجد » فوق فراشه قلقاً ومرّ الوقت ببطء قاتل. وأحسّ باقتراب أقدام من الحجرة وقفز إلى جوار بابها واختبأ في حفة.

« فتح الباب وظهرت الممرضة وهي تدفع عربة الأدوات الطبية، وعلى الفور امتدّت يد « ماجد » لتلتصق فوق فمها، وفوجئت الممرضة بالحركة وجحظت عيناها من المفاجأة وإن لم تتح لها يد « ماجد » أي قدرة على الصراخ أو الاستنجاد، وعندما خطا الطبيب داخل الحجرة امتدّت يد « ماجد » الطليقة لتغلق الباب بسرعة.. ثم انطلقت في لكمة ساحقة نحو بطن الطبيب وانحنى الطبيب لشدّة الضربة وقد جحظت عيناه من الألم وبدا كأنهما ستقفزان من محجريهما . وعاجل « ماجد » الطبيب بلكمة أخرى مدّدت الطبيب فوق الأرض بلا حراك.

وهمس « ماجد » بصوت مُهدد في أذن الممرضة بالانجليزية إذا ما حاولت الصراخ أو الاستنجاد فسوف أقتلك

وأزاح يده ببطء من فوق فم الممرضة وقد أمسك بمشرط طبي التقطه من عربتها وقرّبه من وجهها مهدّداً فلمح شبح ابتسامة فوق وجه الممرضة وقالت بصوت هامس بالانجليزية: إنك بارع حقاً. كنت أنوي أن أساعدك لتغادر هذا المكان.

وجالت منها نظرة نحو العدسة التليفزيونية التي غطاها « ماجد » باللاصق وقالت بإعجاب شديد: يا لك من ماهر.. كنت سأقترح عليك نفس الخطة.

حملق « ماجد » في الممرضة بدهشة وهو يقول: من أنت؟

ردت الممرضة بسرعة: ليس هذا وقت الأسئلة.. هيا بنا فإن هناك سيارة تنتظرنا على مقربة.

ابتلع « ماجد » دهشته، ولم يكن هناك وقت للأسئلة، وأسرع يخلع ملابس الطبيب ويرتديها. ونزع الضمادة من فوق جبهته وأخرجت الممرضة من جيبها بودرة بيضاء راحت تنثرها بمهارة فوق جبهة « ماجد » ووجنتيه فأخفت جروحه وظهر وجهه شاحبًا منها. ثم أخذت من عربة الأدوات الطبية الحقنة المخدرة وحقنت بها الطبيب لتغيبه عن الوعي وهي تقول: إن هذا كفيل بأن يتركه نائماً حتى الصباح.

وحمل الاثنان الطبيب ومدداه فوق الفراش وغطياه بالملاءة البيضاء.. واقتربت الممرضة من الباب وهي تقول لماجد هامسة: اتبعني بهدوء ولا تجعل الحرس يشكون.

أومأ « ماجد » برأسه في صمت.. وفتحت الممرضة الباب وهي تدفع عربة الأدوات الطبية أمامها و« ماجد » خلفها، وقد اندفع

خارجاً بسرعة ووجهه منكّس للأرض لكي لا يتيح للحراس الأربعة التمعّن فيه.

ومر الاثنان في الممر بدون أن يعترضهما أحد. ووقفا أمام باب المصعد، وضغطت الممرضة فوق زر باب المصعد، وعلى البعد ظهر بعض الأطباء والممرضين قادمين. وأحسّ «ماجد» بالقلق الشديد لو شاهده الأطباء والممرضون يشكون في أمره واكتشفوا أنه ليس زميلاً لهم.

وانفتح باب المصعد في اللحظة الأخيرة فاندفع «ماجد» والممرضة داخله، وضغط «ماجد» زر غلق المصعد وتنفّس في راحة عندما بدأ المصعد هبوطه.

وهمس «ماجد» للممرضة: كيف سنخرج من البوابة الرئيسية؟ لا بد أن هناك حراسة قوية وسوف يشكّون بي حتماً.

ردّت الممرضة بثقة: كل شيء مرتّب فلا تقلق.

وتوجّهت الممرضة وخلفها «ماجد» إلى مبنى صغير في مدخله عدة سيارات إسعاف. وتحدثت الممرضة مع أحد السائقين حديثاً بالروسية فأومأ السائق برأسه بسرعة وأسرع إلى سيارته وأدارها.

وعرف «ماجد» على الفور خطة الممرضة: أن يخرج معه داخل سيارة إسعاف كأنهما ذاهبان لإحضار أحد المصابين

على الفور قفز « ماجد » والممرضة داخل السيارة من الخلف، وعبرت السيارة بوابة المستشفى بلا مشاكل، ثم انحدرت إلى الطريق بسرعة.

والتفت « ماجد » إلى الممرضة متسائلاً: انك لم تخبريني من أنت وما هو هدفك من مساعدتي للهروب من المستشفى.

لم ترد الممرضة، وأخرجت من جيب معطفها مسدساً صوّبته إلى « ماجد » وهي تقول: اذا حاولت القيام بأي مقاومة فلن أتردد في اطلاق الرصاص عليك فوراً. إن لدي أوامر بذلك من رؤسائي.

ضاقت عينا « ماجد » وهو يتأمّل مسدّسها الصغير من طراز « سيج سوير ب ٢٣٠ » وقال باسماً: هذا مسدّس يفضّل بعض رجال المخابرات الأمريكية استعماله لصغر حجمه وسهولة استعماله ومداه المؤثّر. أليس كذلك؟ كنت أتساءل متى سيظهر رجال الـ (CIA) في الصورة؟

لم تعلق الفتاة وظلّت مصوّبة مسدّسها الى « ماجد » وعيناها لا تطرفان. وتوقّفت سيارة الاسعاف، فقد كانت هناك سيارة معطّلة تسدّ الطريق، واقترب سائق السيارة المعطّلة من سائق سيارة الاسعاف وهو يحاول الاعتذار له. وبطلقة من مسدّس كاتم للصوت من الرجل تمدّد السائق بلا حياة فوق مقعد السيارة.

وظهر ثلاثة رجال مسلّحون من سيارة أخرى كانت واقفة على مسافة قريبة فأحاطوا بسيارة الاسعاف شاهرين مسدّساتهم نحو « ماجد »..

وعرف أنه صار في قبضة المخابرات الأمريكية هذه المرة!

* * *

« صراع ثلاثي »

غادر « ماجد » سيارة الإسعاف إلى السيارة الثانية والمسدسات الأربعة مصوّبة إليه، وأحاط به اثنان من المسلّحين في المقعد الخلفي على حين جلست الفتاة الممرّضة في المقعد الأمامي بجوار السائق وأخفت مسدّسها داخل سترتها. وانطلقت بهما السيارة إلى وجهة مجهولة

قال « ماجد » للفتاة . اذن فقد استطعتم اختراق صفوف السوفيات

هذا مؤثر . إن زرع ممرضة تابعة للمخابرات الأمريكية في مستشفى تابع للمخابرات الروسية في « موسكو » هو مسألة لا تقل صعوبة عن الهبوط فوق القمر، ويبدو أنني محظوظ لأتمتّع بخدماتكم واهتمامكم على هذا النحو

راقبته الفتاة بصمت ولم تنطق.

وعاد « ماجد » يقول : انني لا أفهم سر تصرّفكم هذه المرة بمكنا أن نعذر الروس فهم كانوا بحاجة إليّ . ولكن ما

في حاجتكم لي، فحسب ما عرفت فقد اقتربتم كثيراً من الميكروفيلم.

قالت الفتاة ساخرة: هذا صحيح. بوجودك معنا فقد اقتربنا كثيراً من استعادته.

تساءل «ماجد» بعيون ضيّقة: لكن.. فقد كانت تلك المعلومات التي سرّبتموها إلى الروس عن قرب حصولكم على الميكروفيلم مجرّد خدعة.

— ها قد بدأ عقلك ينشط. كان ذلك من أجل إرباكهم حتى يتسنّى لنا تهريبك وبذلك يمكن بالفعل أن نقول أننا صرنا قريبين جداً من معرفة مكان الميكروفيلم.. بحصولنا عليك!

هتف ماجد: مرحى مرحى. إنكم لا تقلّون براعة عن أصدقائنا الروس. إن اللعب عالي التكنيك هذه المرة

وتأمل الطريق الذي راحت السيارة تقطعه، ولاحظ وجود سيارة بالخلف تتبعهم وقد أطفأت كشافاتها فأدرك «ماجد» أنها تابعة للمخابرات الأمريكية أو لمخابرات الأعداء الذين لا بد وأنهم يتعاونون مع الأمريكيين بطريقة ما في تلك القضية، والتفت إلى الفتاة قائلاً:

إننا نتجه خارج «موسكو» أليس كذلك. ويبدو أن هناك بعض الأصدقاء يتبعونا منذ وقت.

صوّب الشخص الجالس إلى اليمين مسدّسه في وجه «ماجد»

بلهجة تهديدية وعيون عاصبة محذّرة بدون أن ينطق فقال « ماجد » للفتاة : أتستأجرون حرساً شديد مهامكم من المؤكد أن شخصاً مثل صاحبنا هذا لو شاهد الحجرة الموسيقية وحل صمماً على أصدقائنا الروس لأنطقوه بألف لغة، حتى لو كانت القطة قد أكلت لسانه من قبل!

هتف الرجل بصوت متحجّر : لماذا لا تكفّ عن الصحيح وتغلق فمك الثرثار؟

رد ماجد : اذن فإن القطة لم تأكل لسانك . هذا حسن.. وماذا أفعل إذا كففت عن الحديث؟

— تضع لسانك في فمك وإلا فإني سأصبح عصبياً جداً، وأنا عندما أصير عصبياً فلا يمكنني التنبؤ بما سأفعله في تلك اللحظة

— أنا أيضاً أصبح عصبياً عندما أكف عن الحديث . وهكذا نرى أننا نحن الاثنين في موقف صعب، اذ يتعيّن عليّ أن أتحدّث، ويتحتّم عليك أن تستمع، فهكذا تفترض الأصول، حيث أنني في ضيافتكم!

ظهر الغضب في عيني الرجل، ورفع مسدّسه بحنق ليهوي به فوق رأس « ماجد »..

وهنا لا بد أن نقول إنه أخطأ بذلك خطأً كبيراً. وأن « ماجد » قد استدرجه بسذاجة ليفعل ما يريد بالضبط!

فقبل أن تهبط يد الرجل الممسكة بالمسدّس فوق رأس « ماجد » كانت يد « ماجد » أسبق، فأمسك بمعصم الرجل بيده اليمنى، وبنفس اللحظة فتح باب السيارة ليدفع الجالس على يساره خارج السيارة بدفعة قوية من قدمه.

تم ذلك كله بسرعة بالغة لم تستغرق غير ثانية واحدة. وقبل أن تتمكّن الفتاة الجالسة في المقعد الأمامي من إخراج مسدّسها انطلقت رصاصة من مسدّس الرجل الجالس على يمين « ماجد » والذي أمسك « ماجد » بمعصمه وضغط عليه بشدّة، فأصابت الرصاصة جبهة الفتاة فانكفأت على وجهها ميتة. وانحرف السائق بسيارته بشدّة فوق الجليد، وبضربة سيف يد أسقط « ماجد » المسدّس من يد الجالس على يمينه، وبقبضته وجّه إليه لكمة ساحقة، وفي أقل من ثانية كان الرجل يتدحرج فوق الجليد ساقطاً من السيارة وخلفه زميلته القتيلة

التقط « ماجد » المسدّس ووجّهه إلى السائق قائلاً بصوت بارد يحمل كل الوعيد: استمر في الانطلاق وانحرف في أول طريق فرعي.

انطلق السائق بالسيارة في صمت وقد ظهرت ملامحه فزعة في

مرآة السيارة الداخلية. وراقب « ماجد » السيارة القادمة من الخلف مشاهدها على مسافة. ودوت طلقة مكتومة منها أصابت جدار السيارة من الخارج مما دلّ على أن ركاب السيارة الثانية عرفوا ما حدث لرفاقهم داخل السيارة الأولى. وعرف « ماجد » أن ركابها تابعون لمخابرات الأعداء والتي سرق منها « ماكس » الميكروفيلم.

قال « ماجد » للسائق: لا أظن أن الروس يخافون ممن يرعبهم ويوقظهم من أحلامهم بطلقات الرصاص، خاصة إذا كانت من مسدسات كاتمة للصوت. هيا أيها الصديق فسنحرف في الطريق القادم فقد بدأت أملّ هذه اللعبة، هذا بالإضافة إلى أن شهيتي قد انفتحت للقتال والعراك.

انحرف السائق بالسيارة في الطريق الضيّق إلى اليسار وبدأت تحجبه الأشجار الكثيفة وانفصلا عن الطريق الرئيسي. وتسلقت يد « ماجد » بمؤخّرة المسدّس فوق رأس السائق فانكفأ فوق عجلة القيادة، وفي لحظة احتلّ « ماجد » مكانه وألقاه خارجاً، واستعدّ للمواجهة القادمة. اقتربت السيارة الثانية وانحرفت في الطريق الفرعي وقد أضاءت أنوار كشافاتها، وما أن لمح قائدها السيارة المعطلة إلى ركن الطريق حتى أوقف سيارته بصوت حاد، واندفع من السيارة ثلاثة رجال وهم يصوّبون مسدّساتهم ويسبّون ويشتمون، وأسرعوا نحو السيارة الأخرى فوجدوها فارغة لا أحد بها.

تلفّت الرجال الثلاثة حولهم وقد شملهم غضب شديد، وهتف

أحدهم حانقاً: هذا الثعلب المصري.. أين اختفى؟

وجاءه تساؤل من الخلف: أتبحث عني أيها الصديق؟

واستدار الرجال الثلاثة في لحظة واحدة.. وهي نفسها اللحظة التي انطلقت فيها ثلاث رصاصات متتابعة من المسدس الصغير «ربع سوبر» في أقل من ثانيتين، وانكفأ الرجال الثلاثة فوق الجليد كأجولة الملح وقد أصابتهم الرصاصات في مقتل.

تأمل «ماجد» مسدسه بإعجاب وقال: إنهم يجهلون اختيار أسلحتهم جيداً، ولا بد أنه سيزداد إعجابهم بمسدسهم عندما يتصل بهم الحانوتي لدفن هؤلاء الأغبياء الثلاثة.

واتجه إلى السيارة الأولى وأدار محركها.. وشرع يشق الطريق بها عائداً إلى «موسكو».

« ايفانا بافلوفتش »

لم يكن من عادة « ايفانا بافلوفتش » الاستيقاظ مبكراً. وهو أمر قد يبدو شاذاً وغير مألوف بالنسبة لأي شخص يعش في « روسيا »، فالاستيقاظ المبكّر والاتجاه إلى العمل في مواعيد محدّدة مضبوطة هو أمر مقدّس بالنسبة للشعب الروسي.

ولكن « ايفانا بافلوفتش » كانت شأنها شأن الطبقة الراقية في طول البلاد وعرضها لا تتقيّد بمثل ما يتقيّد به العامة

وهكذا فتحت عينيها بعد الظهر بقليل. وكعادتها بعد استيقاظها أخذت حماماً بارداً برغم برودة الجو الشديدة، ثم أسرعت في أداء بعض التمارين لمدة ساعتين حتى أصابها الاجهاد الشديد. وكان حماماً بارداً آخر كفيل بانعاشها.

وقرابة العصر تناولت (افطارها).. واسترخت للقراءة مدة ساعتين ومع أول هبوط الليل كانت ترتدي ملابسها وتستقل سيارتها الخاصة إلى مسرح البولشوي..

وأسعدها تلك الليلة التصفيق المتواصل الذي استمرّ أكثر من المألوف بدقيقة ونصف بعد انتهاء عرضها اليومي

وقادت السيارة عائدة إلى بيتها في منتصف الليل وهي تحس بالاجهاد وكثير من التوتر والقلق وأعصاب الطائرة ومشاهدو الفرقة لم يكن أكثرهم فطنة وتدقيقاً ليعطي «إيفانا دموفتش» أكثر من اثنين وثلاثين سنة عمراً. ولكن التجاعيد التي أظهرها التعب والاجهاد حول وجهها وزوايا عينيها أظهرت بوضوح أنها تخطو نحو الأربعين من عمرها على الأقل..

ولم تلبث سعادتها التي أحسّت بها وهي تقف لتتلقّى تحية الجمهور مع زملائها أن تبدّدت وحل محلّها شعور بالانقباض والضيق من كل شيء..

كانت حياتها كلها تمضي على وتيرة واحدة بلا تغيير وبرغم الكثير من الامتيازات التي كانت تتمتّع بها هي ونجوم الفرقة من سكن فاخر وسيارة وسفر إلى كل بلاد العالم ومزايا عديدة داخل بلدها، إلا أن شعورها لم يتبدّد أبداً..

بالضبط كانت تشعر أنها ترس ضئيل في آلة ضخمة دوارة هائلة، وأنها سواء استمرّت تؤدّي عملها أو طواها النسيان أو حتى ماتت فجأة فوق فراشها، فإن هذا لم يكن ليغيّر شيئاً أبداً حولها. وسوف يذهب الجمهور ليصفّق للنجمة التالية التي ستحلّ محلّها في الفرقة.

ولهذا فإنها لم تتزوج أبداً. وكأنها كانت تخشى من الإنجاب حتى لا يعاني ابنها أو ابنتها نفس ما عانته. وتحطمت كل قصص حبها بسبب ذلك الخوف الكامن في أعماقها من شيء مجهول قديم.

وتجددت مخاوفها وأحزانها وآلامها واشتدت مرة واحدة عندما أخبرها مدير الفرقة أن أوبرا جديدة ستعرض بعد أسابيع قليلة. وأنها لن تكون النجمة في بيت الأوبرا.. وكان هذا يعني أنها لن تسافر مع الفرقة في الرحلة القادمة إلى أوروبا بعد أسبوعين، وأن النجمة الجديدة المنتظرة صغيرة السن ستحل محلها.

كانت تتوقع ذلك منذ شهور بعيدة. فإنها لم تعد تؤدي العروض برشاقتها وبراعتها السابقة. الزمن بدأ بعرض أحكامه عليها والفرقة بحاجة إلى تجديد. وهي لا تستطيع أن تقف في وجه التطور والزمن.

مسحت دموعها وهي تقود سيارتها في الطريق الخالي من البشر والسيارات في ذلك الوقت المتأخر من الليل. ومضت أيام حياتها السابقة مثل شريط سينمائي أمام عينيها. يوم دخلت مدرسة الباليه وهي طفلة. يوم انضمت إلى معهد الباليه العالي في موسكو. يوم انضمت إلى فرقة «البولشوي» أعظم فرق الباليه في العالم. يوم صارت نجمة الفرقة الأولى المحد. المال. الشهرة. السفر. الامتيازات. النجاح. التصفيق الهادر. وها هي تسعى نحو الهاوية. فالقمة لا يستقر أحد عليها طويلاً.. خاصة في مهنتها. أوقفت سيارتها أمام باب منزلها. هبطت منها ببطء..

فتحت باب منزلها ودخلت، تعيش وحدها منذ أعوام طويلة

وأضاءت نور الردهة. واستلقت فوق أقرب مقعد وأخفت وجهها
بكفّيها وأجهشت في البكاء بشدّة. واستمرّت تبكي لحظات طويلة

وقطع نشيجها صوت هادئ يقول: أيمكنني تقديم يد المساعدة
يا سيدتي؟

رفعت « إيمان » عينيها بدهشة فشاهدته أمامها. طويلاً ذا أكتاف
عريضة وشعر أسود فاحم وعينين عسليّتين واسعتين شديدتي العمق
والجاذبية. وكان بوجهه ندوب وخدوش عديدة ولكنها لم تقلل
من وسامته بل زادته وسامة

وتساءلت « إيمان نافلوفتش » ذاهلة وقد كفّت عن البكاء: من
أنت؟

جلس « ماجد » أمامها ونظر إلى عينيها مباشرة وهو يقول:
إنني واثق أنك تعرفين تماماً من أكون!

٥ ٥ ٥

« ماضي.. وحب.. وجاسوسية! »

قالت « يمانا » داهلة يا الهي. أهو أنت.. هذا مستحيل كيف استطعت الوصول إلى هنا؟

قال « ماجد » في بساطة يبدو أنك لم تتوقعي رؤيتي إن هناك مثلاً شائعاً في بلادنا يقول إن من يسأل لا يضل طريقه!

عضت « يمانا » على شفتيها قائلة منذ أن حضر « روجيه » أدركت أنك أنت أيضاً ستحضر إلى الأبد

رفع « ماجد » حاجبيه قائلاً : إذن فإن اسم « ماكس » الحقيقي هو « روجيه ».. هذا تقدّم لا بأس به. ولكني لا أعرف حتى الآن ما هي العلاقة بينكما.

مضت لحظات من الصمت، ونطقت « إيمان » أخيراً فقالت والدموع تبلّل عينيها : إنه أخي!

حدّق « ماجد » في الفتاة بدهشة وقال غير مصدّق أخوك ولكنه

قاطعته بمرارة قائلة : انه أخي من أمي . فقد أنجبته أمي في احدى مستشفيات « المانيا »، وعندما قامت الحرب الثانية وأعلن « هتلر » الحرب على « روسيا » هربت أمي من « المانيا » تاركة أخي « روجيه » الصغير هناك واستقرّت على الحدود الروسية ولم تتمكّن من استعادة « روجيه » ثانية، ثم تزوّجت من جندي ألماني عند اندفاع جيش هتلر الى البلاد في بداية الحرب وكنت أنا ثمرة هذا الزواج من أب الماني

ماجد وبعد ذلك؟

— ماتت أمي.. أو بالأدق اختفت ولم يعرف لها أحد مكاناً وكان هذا شأن أغلب الروسيات ممن تزوّجن بالجنود الألمان فقد كانت أوامر « ستالين » هي التخلّص منهنّ في سرية وصمت..

ماجد ولا أظن أن أحداً هنا يعرف هذه الحقيقة.. حقيقة مولدك؟

— لقد اخفت أمي حقيقة مولدي ولم يعرف أحد أن والدي جندي ألماني في جيش « هتلر » والا لكان مستقبلي قد تحطّم تماماً هنا . وبعد اختفاء أمي تبنّتني أسرة روسية صغيرة لم يكن لها أبناء، وهكذا حملت اسمها واكتسبت الجنسية الروسية بعد أن اختفى التاريخ الحقيقي لمولدي واختفى هذا السر إلى الأبد.. لولا..

وعضّت شفتيها ندماً على خطئها.. وسطع قبل ماجد
بولا الكولونيل « سيرجي ».. « ماكس المزيّف » أليس
كذلك؟

قالت داهلة : اذن فأنت تعرف؟

— ليس بالضبط. اني أفضّل أن أستمع إلى القصة كاملة منك

بان التردد على وجه « ايفانا » ولكنها حسمت رأيها بعد لحظات،
وظهر الارهاق الشديد عليها وتصاعدت الغضون فوق وجهها وهي
تقول . كان الكولونيل « سيرجي » يحبّني بجنون وأراد أن يتزوّجني
ولكني لم التفت إليه أبداً أو أبادله عاطفته.

— انت محقّة في ذلك تماماً يا سيدتي!

— ولكنه لم ييأس وحاول بكل الوسائل الضغط عليّ لأخضع
له فرفضت وهنا راح ينبش في ماضيّ

ماجد انهم جميعاً يفعلون ذلك وقد اكتشف الكولونيل
« سيرجي » حقيقة مولدك ووالدك الألماني أليس كذلك؟

شحب وجه « ايفانا » وقالت : نعم.. وما شئت الأمور أن زادت
سوءاً فقد كنت على صلة بأخي « روجيه »، وكانت أمي
قد نجحت في الاتصال به قبل اختفائها واستطاعت أن
تربطنا معاً برسائل سرية تبادلناها حتى بعد اختفاء أمي..

وهكذا لم تنقطع الصلة بأخي طوال هذه السنين وتمكنت من مقابلته عدة مرات في « أوروبا » عند سفري مع الفرقة، ومنذ أسابيع قليلة وصلتني رسالة من أخي عن طريق صديق يبلغني فيها أنه سيأتي إلى « موسكو » في مهمة سرية وأنه سيقيم في فندق قريب ويطلب مني مقابلته في ميعاد معيّن.

وصمتت لحظة ثم هتفت بوهن : وقد وقعت هذه الرسالة في يد الكولونيل « سيرجي ».

تساءل ماجد وكيف علمت بمحتواها؟

— لقد أحضرها لي الكولونيل بنفسه كوسيلة للضغط عليّ لأتزوّجه بعد أن هدّدني بكشف أمري إلى السلطات مما كان يعني فقدي لجنسيتي وكافة حقوقي.

— حسناً.. وبعد؟

— استطاع « سيرجي » تعقّب أخي « روجيه » عند وصوله هنا وقام بسرقة جواز سفره ليمنعه من مغادرة « موسكو ».

— أتقصدين أن الكولونيل « سيرجي » كان يريد أن يبقى أخاك هنا رهينة حتى تتزوجي منه؟

هتفت « إيفانا » على شفتيها وهي تقول . هذا صحيح.

— ولكن الأمور تطوّرت بسرعة. واختفى « روجيه » أخوك أو قُتل.

تبلّلت عينا « ايفانا » بالدموع وقالت بمرارة: ليته ما جاء هنا لقد أبلغ « سيرجي » رؤساءه بكل شيء عن أخي مما تسبب في القبض عليه في النهاية.

وسادت لحظات صمت، وأشعلت « ايفانا » سيجارة راحت تدخّنها ببطء وعيناها شاردتان.

وأفاقت من شرودها على كلمات « ماجد » وهو يقول: ان عدم دهشتك لمجيئي تدل على أنك كنت تعرفيني، لا أقصد معرفة شخصية ولكنك كنت تتوقّعين مجيء شخص يرتبط مجيئه بأخيك « روجيه » ومهمّته الخاصة التي جاء إلى « موسكو » لاتمامها.

— نعم.

— ولا شك أن « روجيه » قد سلّمك شيئاً خاصاً. شيئاً هاماً جداً كأمانة لديك في حال تعرّضه لأي خطر وكان هذا سرّ بينكما.

حدّقت « ايفانا » في « ماجد » قليلاً واضطربت أهدابها وغمغمت: وكيف عرفت. إن أحداً لم يعرف هذا السر أبداً. ولا حتى الكولونيل « سيرجي ».

— أنت محطئة تماماً يا سيدتي كان الكولونيل « سيرجي » أول من عرف أن الميكروفيلم معك ولكنه لم يشأ احبار رؤسائه حتى لا يعرّضك لمتاعب ولا شك أنه كان ينوي التخلص مني ثم يعود ليحصل منك على الميكروفيلم ويقدّمه لرؤسائه بطريقة لا تعرّضك للمتاعب ولكنه قتل أثناء المهمّة.. وذكر لي قبل موته اسمك. وكان هذا كافياً لحل السر، وعندما فكّرت قليلاً في الأمر استطعت استنتاج قصة حب « سيرجي » لك بسبب معرفته بمكان حجرتك في المسرح ومواعيد حضورك وانصرافك وكل ما يتعلّق بك وهذا ما لا يعلمه إلا عاشق ولهان كان هذا واضحاً في البداية، لقد كان مخلصاً لك في حبّه وقد استطاع حمايتك بالفعل

تطلّعت « ايفان » إلى « ماجد » ذاهلة، وقال ماجد ان الكولونيل « سيرجي » لم يكن بالسوء الذي حسبته.. إن الحب يفعل الأعاجيب حتى لرجال المخابرات.. لقد أوقع « سيرجي » بأخيك وأبلغ عنه لأن هذا عمله ولكنه لم يذكر اسمك قط، أو يخبر أحداً أنك أخت « روجيه » أو أنك تملكين الميكروفيلم.

— ولكن كيف استطعت الافلات منهم؟

— هذه قصة يطول شرحها. ولكن حسبك أن تعرفي أنهم

أتحفوني ببرنامجهم وأمتعوني بموسيقاهم العذبة وحركاتهم الموسيقية المكهربة!

هتفت « ايفانا » بدهشة : عمّ تتحدّث؟

— ربما أشرح لك يوماً ما. أما الآن فلا وقت لديّ. إنني أريد الأمانة التي تركها لك « روجيه ».

صاحت بعنف « ايفانا » وهي تقول. وكيف أعرف ذلك الشخص المطلوب؟

ماجد: ليس لديّ ما أبرهن به على صدق قولي. ويكفي أنني أعرف كل شيء عنك ولم أنطق به إلى من يهمّهم الأمر في هذا البلد.

ومرت لحظات أخرى من الصمت. وأخذت « ايفانا » تذهب وتجيء في الصالة الواسعة المليئة بصورها في ملابس الباليه أثناء عروض الفرقة في كل مسارح العالم. كانت « ايفانا » عصبية ورمقها « ماجد » برهة بصمت وهي تدخّن سيجارتها بشراهة وأصابعها ترتعش، ثم ألقى نظرة إلى ساعته وقال:

ليس لدي وقت كبير يا سيدتي. إن كل رجال الأمن والشرطة في « موسكو » سيبدأون بحثهم عني خلال ساعات قلائل بعد أن يكتشفوا هربي من المستشفى.

التفتت « ايفانا » إلى « ماجد » وأطفأت سيجارتها في مطفأة

دهية وقالت: إنني مستعدة أن أمنحك الميكروفيلم بشرط واحد

تساءل «ماجد» بعيون ضيقة: ما هو؟

— أن تأخذني معك من هنا!

تطلّع «ماجد» إليها بدهشة وقال: لست أفهم يا سيدتي. إن مكانك هو هنا وليس في أي مكان آخر. هنا المجد والبريق والشهرة. إن كثيرين يتمنون لو كانوا مكانك.

قالت «إيفا» بمرارة: سيذهب كل ذلك. سيضيع في غمضة عين. سأصير واحدة من ملايين العجائز في هذا البلد ممن لا عمل لهم سوى التحسّر واجترار المرارة. أرجوك لم يعد لي بلد أو حياة هنا. لقد تعبت من السهر ولن يتسنّى لي مغادرة هذه البلاد إلى الأبد وربما يكتشفون حقيقة أبي وأمي ولن يعلم مصيري بعدها إلا الله خاصة إذا عرفوا أنني كنت أخفي الميكروفيلم كل هذه المدة. إنني في خطر داهم وأنت فرصتي الوحيدة لأن أبدأ حياتي مرة أخرى.. في مكان آخر بلا خوف.

وصمتت «إيفا» وسادت لحظات صمت متوترة وأحس «ماجد» بصعوبة الموقف الذي عاد يتجدّد مرة أخرى

غمغم ماجد: ولكن.

وفي هدوء أوقف كلماته ما قامت به « إيفانا » من عمل، فقد فتحت حقيبتها الصغيرة وأخرجت منها شيئاً صغيراً في حجم كبسولة الدواء وابتلعته قبل أن يدرك « ماجد » حقيقة ما قامت به.. وارتسمت ابتسامة يائسة فوق شفتيها وقالت:

لقد صار الميكروفيلم في جوفي وليس أمامك سوى طريقتين للحصول عليه. إما أن تقوم بإخراجي من هذه البلاد بوسيلة ما وفي جوفي ذلك الشيء الذي تسبّب في موت أخي ولحق بي كل هذه المتاعب، وإما أن تقتلني لتحصل عليه!

صاح عندئذ « ماجد » وهو يقول: ألا تخشين القتل؟

ردت بيأس: يتساوى بقائي هنا مع موتي. وربما لو كنت أنت تابعاً لأي جهة مخابرات أخرى لكنت أدرك خطورة ما أقامر به. فإن حياة إمرأة مسكينة وحيدة لا تعنيهم في شيء ولن يتوقّفوا أمامها طويلاً ليستشيروا عقولهم. أما معك فأعتقد أن الأمر يختلف. أخبروني بذلك عن العرب. إنهم قوم كرماء ذوو أخلاق ويحترمون آدمية الانسان، ولا يعتدون على السيدات الضعفاء، ولهذا فأنا أثق بك.

أحس « ماجد » بكلماتها تصل إلى قلبه مباشرة. كان بوسعه قتلها والحصول على الميكروفيلم وفي مجال عمله يعتبر ذلك عملاً عادياً.. بل وربما ينال من يقوم به ترقية أو مكافأة أو حتى ميدالية

إذا ما عاد بالميكروفيلم، ولكنه أبداً ما كان يستطيع ذلك بأي حال مع إمرأة.

واقتربت منه « ايمانا » هامسة بقلق وتوتر : لم اسمع ردك

وقبل أن ينطق « ماجد » وصل إلى أذنيه صوت حركة خفيفة في الحديقة، فقفز بخفة إلى جوار الباب، وما كاد الباب ينفتح وبرز منه يد قابضة على مسدس حتى هبط ذراع « ماجد » بضربة قوية اطاحت بالمسدس وسدد بقبضته بكمه إلى وجه المهاجم ألقته خارجاً.

ودوت عدة طلقات كاتمة للصوت شقت الباب فصرخ « ماجد » في « ايمانا » احتمي في أي شيء، إن هناك عدداً من المهاجمين

هتفت « ايمانا » بذعر : من هم؟

رد « ماجد » وهو يحشو مسدسه بالرصاص لا أدري إلى أي جهة ينتمون. ولكن من المؤكد أنهم قد عرفوا أن الميكروفيلم معك وقد جاءوا للحصول عليه.

انهارت « ايمانا » وانفجرت باكية وهي تقول لا فائدة سوف أموت هنا.. لن استطيع مغادرة هذه البلاد أبداً.

أمسك « ماجد » بمعصمها بقوة وقال وهو يحدق في عينيها : منذ الآن يجب أن تثقي بي إما أن نغادر هذه البلاد سوياً.. وإما أن نموت معاً.

سرت الطمأنينة في ملامح نجمة الباليه الروسية، وظهرت في عينيها نظرة شكر عميقة وهي تحدّق في « ماجد » وتتفرّس في ملامحه، وفجأة اقتحم أحد المهاجمين باب الشقة وصرخت « بفانا » ذعراً ولكن رصاصة انطلقت من مسدّس « ماجد » ألقت الرجل طريحاً فوق المدخل.

همس « ماجد » في أذنها: لا تتحرّكي من مكانك سأعود حالاً

وأسرع إلى الجهة الخلفية من الشقة وتسلّل عبر شبّاك المطبخ إلى الحديقة. كان الظلام يسيطر على المكان فتسلّل مختفياً بأشجار الحديقة. وشاهد شبحاً يمرق مسرعاً، وبضربة واحدة مكتومة ألقاه على الأرض

وكان هناك شبح آخر على البعد. وطلقة محكمة من مسدّس « ماجد » ترنّح الشبح، ثم تهاوى قتيلاً بصوت مكتوم.

ولم يعد هناك مهاجمون آخرون. وبحث « ماجد » يفتّش أحد القتلى فوجد بداخل جيوبه تحقيق شخصية تابع لمخابرات الأعداء.

أسرع « ماجد » يحمل القتلى الثلاثة في الحديقة ويخفيهم داخل قبو منزل « بفانا » التي سألته بذعر عما ينوي أن يفعل

ردّ « ماجد » وهو يعيد ترتيب المكان: يجب أن تتركي المكان نظيفاً هنا حتى لا يشك أحد بك. إن هؤلاء المهاجمين لحسن الحظ ليسوا تابعين للمخابرات الروسية وهذا يدل

على أن المطاردة الحقيقية سوف تتأخر قليلا لأن الحراس « باشكو » ورجاله لم يعلموا شيئاً عنك بعد.

وأكمل مهمته ودفع جرحاً فحقق به « بغدان »، واندس الاثنان داخل سيارة « بغدان »، وأدار « ماجد » مفتاح السيارة فسألته بحمحمة اسأله عقبق نابع أين نحن ذاهبان؟

رد ماجد إلى محطة القطارات ما هو أقرب موعد للقطار المتجه إلى « لينجراد »؟

ألقت « بغدانا » نظرة قلقة على ساعتها وقالت بعد نصف ساعة بالضبط.

ضغط « ماجد » فوق دواسة البنزين وهو يقول أرجو أن نلحق به إنه أمل الوحيد فلست أشك أن الروس سيكتشفون حقيقتي خلال وقت قصير وسيصبح هربنا أمراً مستحيلاً بعدها.

واندفعت السيارة تشق طريقها فوق الجليد وقد بدأت أولى خيوط الفجر تبدو في الأفق.

وغمغمت « بغدانا » متسائلة هل سيسمحون لنا بمغادرة عاصمة؟

ماجد إنهم يجهلون فرزي حتى الآن وسيساعدنا هذا كثيراً

وفجأة لمع أمامهم حاجز من الأضواء الكاشفة والسيارات تسد

الطريق، وكان هناك العشرات من رجال الشرطة والحرس السرّي وقد احاطوا بالطريق وأشاروا إلى سيارة « ماجد » بالوقوف.

هتف « ماجد » مرعجاً وهو يضغط فوق الفرامل: يبدو أني كنت مسرفاً في التفاؤل. لقد اكتشفوا هربي فأقاموا المتاريس والحواجز لمحاولة القبض عليّ

وما إن توقفت السيارة حتى أحاط بها عشرات من رجال الشرطة وقد صوّبوا مسدساتهم نحو راكبيها

٥ ٥

« الهروب الى لينتجراد »

أحس « ماجد » نفسه يسقط بين قدميه، كان في موقف حرج دقيق، فبعد أن حصل على الميكروفيلم ها هو كل شيء يوشك أن يضيع في لحظة واحدة إذا انكشف أمره . وهو الشيء المؤكّد في هذه اللحظة.

وفتح احد الضباط باب السيارة ملوّحاً بمسدّسه وهو يتحدّث في غضب باللغة الروسية، وفجأة اندفعت « إيفانا » تتحدّث مع الضابط بلهجة غاضبة، وعلا صوتها وشوّحت بيدها والضابط يستمع إليها بوجه شاحب قلق.. وعندما حاول الضابط محادلتها علا صوتها وزادت عصبيتها وهي تتحدّث في غضب شديد.. وظهر التردّد على وجه الضابط ثم تراجع إلى الخلف، ومرت ثانية ظنّها « ماجد » دهراً كاملاً . وبدا على الضابط التردّد لحظة، ثم أشار إلى رجاله فأفسحوا الطريق، وأشار الضابط إلى سيارة « ماجد » بالمرور، ولم يصدّق « ماجد » نفسه وانطلق بالسيارة



وارتسمت ابتسامة فوق شفتي « يمانا » وتزحزحت في مقعدها، وهتفت بـ ماجد: لست أدري كيف أمكنك خداعهم بمرور. إن هذا يبدو عملاً مستحيلاً

رد باسماً: إنهم لا يبحثون عني، وليس هناك من لا يعرف « بطل سعوفتش » في « روسيا ». وعندما هددت هذا الضابط بشكوى رؤسائه معاملته الوقحة وعرقلته سيارة نجمة « البولشوي » التي تريد أن تلحق بفرقتها في محطة القطار، فقد أبدى الرجل تفهمه وخشي من تعنيف رؤسائه ومن العقاب بالنقل إلى أقصى البلاد لمضايقة نجمة الباليه الأولى، وها أنت ترى أننا أحرار مرة أخرى.

قال « ماجد » باسماً: إن للشهرة مزاياها في هذه البلاد أيضاً

هتفت « يمانا » حبيبة نفسي وقالت: إن سفرنا بالقطار إلى « ستجراد » سيستغرق نصف يوم على الأقل، ولا شك أنهم سيكتشفون حتماً خلال هذا الوقت وسيكون أول ما يبحثون عنه هو القطار المتجه إلى « ستجراد »

هز « ماجد » كتفيه قائلاً: هل لديك اقتراح آخر؟

ظهرت الحيرة على « يمانا » وغرقت في الصمت. فأي خطة هرب يمكن أن تقترحها راقصة باليه لم تجرب الهرب في عمرها أبداً؟

توقف « ماجد » بالسيارة أمام محطة القطار، وهتفت « إيفانا » به بصوت خفيض. انتظرني هنا سأبتاع تذكرتين

ماجد. لا حاجة بك إلى تذكرتين، فأنا لست محتاجاً إلى تذكرة للسفر.

تساءلت بحيرة: وكيف ستسافر إذن؟

رد « ماجد » بغموض إن لرجال المخابرات طرقاً عديدة في توفير مصاريف السفر.. لا تشغلي بالك بي

تساءلت مرة أخرى بغموض ألن ترافقني في مقصورتي بالقطار؟

ضاق حاجبي « ماجد » وهو يقول ستكون هذه ضرباً من البلاهة. إنهم يبحثون عني لا عنك، وإذا ما أمسكوا بي معك فستكون نهايتنا سوياً أما إذا قبضوا عليّ وحدي فسيمكنك مغادرة البلاد إذا ما أغلقت فمي عن أي ذكر لك بشرط أن تعديني بأن يصل الميكروفيلم إلى حكومة بلادي في النهاية

غمغمت « إيفانا » بصوت متأثر والدموع في مقلتيها الجميلتين: إنني أعدك.

نطق « ماجد » بإخلاص. وأنا أعدك ألا أفتح فمي بكلمة واحدة عنك في حالة إلقاء القبض عليّ إن ما يهمني هو وصول الميكروفيلم إلى بلادي.

وكمل وهو يحدّق في عينيها: وحروجك سالمة من هذه البلاد

أجهشت « إيفانا » بالبكاء. وربت « ماجد » عليها مهوّناً فتمالكت نفسها. وغادرت السيارة وقد استعادت رباطة جأشها. وعادت بعد دقائق وهمست لماجد: بسي في العربة الثامنة بالمقصورة العاشرة. أين ستكون أنت بالقطار؟

رد بثقة: قلت لك لا تشغلي بالك بي. تأكّدي أننا سنكون داخل القطار معاً. إنه لن يستطيع أن يقلع بدوني!

قالت « إيفانا » بقلق: لم يعد هناك سوى خمس دقائق على قيام القطار.. إنني ذاهبة.

وغابت عن عينيه. وفي لحظات كان « ماجد » يغادر السيارة ويختفي داخل المحطة الواسعة بعيداً عن رقابة العيون المبثوثة في كل مكان.

° ° °

اطلق القطار صفارته الأخيرة. وضغط السائق فوق أجهزة تسيير القطار فبدأ في التحرّك بمهل..

كان من العجيب للسائق أن مساعده لم يظهر حتى تلك اللحظة.. فقد أرسله لأحضار زجاجة « فودكا » من أحد المحال داخل المحطة ولم يعد الغبي حتى تلك اللحظة، والقطار لا يمكن أن ينتظر أحداً

في « موسكو » وخاصة أن تأخير نصف دقيقة قد يعني فصله من عمله. فالنظام شيء مقدّس في تلك البلاد

وفكّر السائق في أنه إذ ما صفعت شرطه مساعده ومعه زجاجة الفودكا فانه سيسرّ من الأمر وسيقول إن زجاجة كانت للمساعد وليس له. وهو — السائق — لن يموت على أي حال لو لم يشرب الفودكا تلك المرة. إنها قد تنسيه طول الطريق، ولكن اذا تم ضبطه وهو يشرب داخل القطار فربما يقضي سنوات في السجن، حيث لن يجد ما يحتسيه سوى كوب الشاي المحروسة!

وتوقف بذيله بذلك الحصر، وحقق خة عرق سائل على جبهته رغم نحو القارس البرودة، وتوقف القطار ثمان عشر ستهم بطريق الحديدي الذي يشق بطن الجليد كثعبان لا نهاية لامتداده وسفامه

فُرِج باب المؤدّي إلى حجرة القيادة وتنفس السائق الصعداء وهو يقول لنفسه ها هو الغبي قد عاد أخيراً ومعه الفودكا. لسوف يصير كل شيء رائعاً ككل مرة.

فتح السائق الباب وهو يهم بالسباب نحو مساعده فأدهشه وجه القمحي المليء بالشحم والذي كان يرتدي ملابس المساعد. ومدّ صاحب الوجه القمحي زجاجة الفودكا للسائق. وقبل أن يهم السائق بالقاء الأسئلة الحائرة التي طفت في عقله أقنعته زجاجة الفودكا ألا يفعل. عندما تحطّمت فوق رأسه فأخرسته بطريقة مؤثرة!

أزاح «ماجد» السائق جانباً وأرقده فوق الأرضية اللامعة ووضع بجواره زجاجة فودكا فارغة وجدها بأحد الأركان. وكان هذا المنظر كفيلاً بأن يجعل من يراه يظن أن السائق شرب الفودكا حتى فقد صوابه!

وعلى الفور احتل «ماجد» مكان السائق، شأن أي مساعد سائق قطار متخصص لم يشأ أن يحدث رئيسه الذي غرق في النوم، فشرع في تمام العمل وحده كأحسن ما يكون المساعد الكفء!

توقف القطار في أول محطة بمدينة «كالس» بعد ثلاث ساعات. كان كل شيء يجري في هدوء، حركة صعود وهبوط الركاب عادية. وأطلق «ماجد» صفارة قيام القطار الأخيرة، ثم شرع في إدارة أجهزة تسيير القطار عندما لمعت اللمبة الحمراء أمامه في مقدمة الجرار. وكان هذا يعني أمراً بالتوقف من المحطة.

وأدرك «ماجد» أن هناك ما يريب. وأن القطار سيخضع للتفتيش. وكان بقاؤه في مقصورة القيادة خطراً، فسوف يكتشف أول من يحاول محادثته أنه يجهل الروسية. ولعل مساعد السائق الذي تركه «ماجد» داخل دورة المياه في محطة «موسكو» فاقد الوعي، واستولى منه على ملابسه وزجاجة الفودكا قد استعاد وعيه وأبلغ السلطات بالقصة كاملة.

على الفور خلع «ماجد» ملابس المساعد وأسرع يغادر حجرة القيادة إلى رصيف المحطة، وشاهد هناك رجال الشرطة وهم يتجهون إلى حجرة القيادة فتأكد من صحة ظنونه. ولحسن حظه شاهد «إيمانا» واقفة على الرصيف فأشار إليها إشارة خفية أن تلحق به في نهاية المحطة.

همست «إيمانا» لـ«ماجد» متسائلة: ماذا حدث؟

رد «ماجد» بصوت خفيض: يبدو أنهم اكتشفوا الأمر بطريقة ما.. يجب أن نغادر المحطة فوراً. وأرخى قبعته فوق وجهه، وتأبط ذراع نجمة السينما التي راحت تحيّي معجبيها الذين أحاطوا بها في شبه مظاهرة، فتمكن «ماجد» من الخروج معها دون أن يرتاب أحد فيهما بفضل ابتسامات «إيمانا» الساحرة التي راحت تلقيها على رجال الشرطة هنا وهناك.

وانطلق الاثنان عبر الحقول الواسعة التي غطاها الجليد، وتساءلت بحيرة: أين نحن ذاهبان؟

تطلّع «ماجد» حوله بحيرة وقال: لا أدري.

ولمع على البعد مبنى عريض يشبه المطار وطائرة صغيرة مروحية تقلع منه فتألقت عينا «ماجد» وهتف بانفعال: يبدو أنه حسن الحظ.. هيا بنا.

وأسرع الاثنان يعدوان نحو سور المطار.. وكان هناك حارس

قريب بمدفع « كلاشنكوف » سريع الطلقات اقترب منهما مرتاباً وما إن وقع بصره على « إيفانا » حتى حدّق فيها بدهشة وخفض مدفعه ونطق بشيء ما باللغة الروسية عندما تعرّف على « إيفانا » فحيّته « إيفانا » بابتسامة عريضة فغمر الحارس سعادة غامرة لا يصدّق عينيه بمشاهدة نجمة الثانية في ذلك المكان المقفر وكان هذا هو آخر ما فعله الحارس فوق كوكب الأرض ثم حلّق بعدها في السموات السبع، إذ أرسلته ضربة « ماجد » العنيفة في بطنه إليها، مما كان لا يُنتظر هبوطه منها إلى الأرض مرة أخرى قبل ساعات!

تجاوز الاثنان الأسوار بسرعة، واقترب « ماجد » من طائرة صغيرة مروحية ذات مقعدين من طراز « راكون » القديمة والتي كانت مستعملة في الحرب العالمية الأولى، وهتف « ماجد » وهو يركب الطائرة : هيا يا « إيفانا ».

تردّدت « إيفانا » وهي تتمعّن في الطائرة وقالت بقلق . أتظن أن هذه الطائرة آمنة؟

رد بلا مبالاة : سنكتشف ذلك حالما نطير بها

وأقنعها باسماً قبل أن تحتجّ : ليس أمامنا فرصة أخرى فلا توجد طائرات « جامبو » في هذا المطار كما أننا لم نخبر المسئولين هنا مسبقاً بسفرنا حتى يحجزوا لنا مقعدين في

مقصورة فاخرة بطائرة الخطوط السوفيتية، وهكذا ترين أننا لا نستطيع أن نلوم أحداً إلا أنفسنا!

التفتت « إيفا » إلى « ماجد » باسمة، وحسمت ترددها وصعدت الطائرة. وأدار « ماجد » محركها الوحيد وشرع يدرج بها فوق المطار ثم ارتفع بها إلى الفضاء.

ومن أسفل تعالى صياح وجلبة بعض العاملين في المطار، وشرع أحدهم على الفور ينقل رسالة بما حدث إلى المسئولين.

تساءلت « إيفا » بقلق والطائرة تشق السحاب: كم سيستغرق وصولنا إلى « ليننجراد »؟

رد ماجد: ليس أقل من ساعة. إنها طائرة بطيئة كما ترى. كانت تستخدم لنقل معدات الحقول، وربما كانوا يستخدمونها في نقل الأسمدة إلى أن [illegible]!

غمغمت إيفا: المهم أن نصل سالمين.

وتلفتت حولها بقلق وهي تتساءل: ألن توجد مظلات نجاة؟

رد ماجد: لا أعتقد أنهم كانوا قد اخترعوها بعد، عندما اخترعوا هذه الطائرة!

همست تدعو: وماذا ستفعل إذا ما أصيبت هذه الطائرة بعطب ما؟

وأجابها ماجد: أولى بك أن توجهي هذا السؤال إلى من اخترع هذه الطائرة وليس لي!

حدّقت «إيفا» في «ماجد» بذعر حقيقي، ثم انكمشت في مقعدها بصمت وحزن وعيناها معلّقتان بالفضاء في الخارج، وراحت الطائرة تترنّح وتهتزّ في طيرانها كأنها تقفز فوق مطبّات وهمية

وفجأةً هتفت في ذعر وأصابعها ترتعد وهي تشير جهة الشرق: انظر.

التفت «ماجد» بسرعة فبدت له على البعد ثلاث طائرات مقاتلة سريعة من طراز «ميج ٢١».

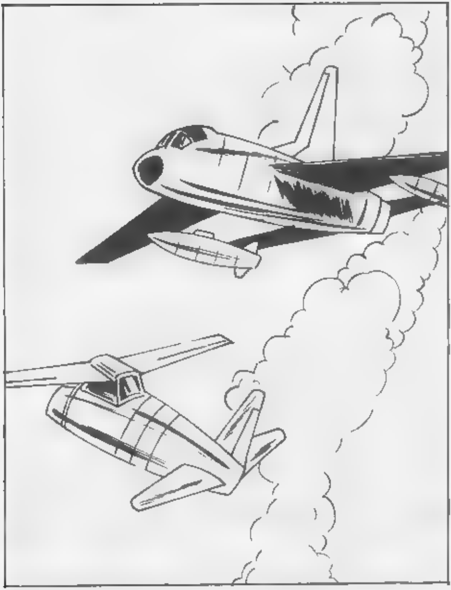
قطب «ماجد» جبينه قائلاً: أعتقد أنهم جاءوا في أثرنا.

صرخت «إيفا» في رعب: هل سيطلقون علينا الرصاص؟

ماجد: لا أظن. إن طائرات «ميج ٢١» لا تطلق إلا الصواريخ!

ولم يكد يتم عبارته حتى انطلقت ثلاثة صواريخ من الطائرات الثلاث المهاجمة، وصرخت «إيفا» في فزع لا حد له كطفلة ترى شبحاً يخرج إليها من الظلام. وعلى الفور انحرف «ماجد» بطائرته «الداكوتا» لأعلى فتحاشى الصواريخ الثلاثة التي ارتطمت بالأرض وانفجرت بصوت مدوّي..

واستدارت الطائرات الثلاثة وعاودت هجومها من الخلف وهي



تضيّق الخناق على الطائرة « الداكوتا » الصغيرة البطيئة في شكل نصف دائرة، وبدت « الداكوتا » أمامها كيمامة فزعة هاربة توشك ثلاثة من النسور على الانقضاض عليها وافتراسها.

وحالما انطلقت الصواريخ من طائرات « الميج » اندفع « ماجد » هابطاً بطائرته لأسفل بسرعة بالغة بحركة بهلوانية حتى أن « ايمان » انكفأت على وجهها. ونجح « ماجد » في الافلات من الصواريخ الثلاثة. ولكن احدى الطائرات شرعت في مناورة ماهرة خلف « الداكوتا » وأطلق قائدها صاروخاً آخر. وأدرك « ماجد » الخطر المحدق به فمال بالطائرة الصغيرة في حركة بهلوانية بالغة الخطورة، وانحرف الصاروخ في آخر لحظة ومسّ جناح الطائرة الأيسر وحطّمه.

صرخت « ايمان » برعب وهي تشاهد الجناح المحترق : إن الطائرة.. سوف تنفجر ونموت.

وبالفعل فقدت الطائرة توازنها. وشرعت في الانحدار نحو الأرض بسرعة بالغة والدخان يتصاعد منها في شكل ذيل طويل.

ولم تلبث الطائرات « الميج » الثلاثة أن مرقت في السماء عائدة إلى ثكناتها، بعد أن قامت بمهمتها خير قيام!

* * *

« العبور.. بطريقة الطيور المهاجرة »!

صرخت « إيمان » في ذعر هائل وأخفت وجهها والطائرة تندفع نحو رؤوس الأشجار بقوة، وكان الاصطدام بها مؤكداً، خاصة وقد فقد « ماجد » السيطرة على الطائرة المحترقة المترنحة بشدة.

وبذل « ماجد » محاولة أخيرة فدفع بذراع التوازن إلى أقصى جهة اليسار، وتحركت الطائرة لحظة ومالت جهة اليمين بزاوية حادة تنجو من الاصطدام بالأشجار، ولكنها اندفعت نحو الأرض بقوة، ودفع « ماجد » عجلة القيادة بكفيه بقوة فانعدلت مقدمة الطائرة ومست الأرض مساً خفيفاً واندفعت تجري فوق الجليد القاسي الذي كان أشبه بالمرآة المصقولة، ثم اصطدمت بنتوء جليدي أطاح بالجناح الأيمن فتناثر إلى أشلاء. وتوقفت الطائرة في مكانها بشدة الضربة بعد أن دارت حول نفسها دورة عنيفة حطمت ذيلها ثم انغرزت عجلاتها وسط الجليد.

كانت « إيمان » لا تزال تبكي وتنتحب وجسدها ينتفض رعباً،

ومن المؤسف أنه فاتها أن تشهد ذلك الهبوط المثير الرائع الذي كُلِّل بالنجاح وانتهى بالطائرة راقدة فوق الجليد بلا جناحين أو ذيل.

همس « ماجد » لـ « إيمان » برقة وهو يقول: لقد هبطنا يا سيدتي. ومن المؤسف أنهم لم يعلموا بوصولنا وإلاّ كان هنالك وفد رسمي لاستقبالنا بأطواق الورود!

تطلّعت « إيمان » حولها بدهشة بالغة فطالعتها الجليد والغابات حولها فاتّسعت عيناها غير مصدّقة وصرخت بفرحة طاغية: لقد نجونا. لقد نجونا يا إلهي. إنك بارع أشد الناس الذين قابلتهم في حياتي براعة وشجاعة.

واندفعت نحو « ماجد » تطوّقه بشدّة ودموعها منهمرة بقوة فربت عليها قائلاً: لا يزال أمامنا الكثير، ووفّري دموعك فقد تحتاجها في موقف آخر يتطلّب البكاء!

وغادر الاثنان مقعديهما، وتعاونا في دفع الطائرة نحو الغابات لتغطيتها بأغصانها، وتطلّعت « إيمان » حولها وأشارت إلى نقطة في الشمال قائلة بانتصار: « بسجراد » إنها على مسافة أقل من ثلاثة كيلومترات.

تساءل « ماجد » مدهوشاً: أأنت واثقة؟

ردت بثقة وعيناها تتألّقان: كيف لا أكون واثقة وقد ولدت في

هذه المدينة العظيمة، لقد قضيت أغلب طفولتي في هذا المكان.. هيا بنا.

وراح الاثنان يسيران فوق الجليد وهما يجاهدان لإتزان أنفسهما، وبعد وقت اقتربا من مشارف المدينة ثم تجاوزاها إلى الداخل

وبدأ الثلج يسقط فوقها فأحدث « ايمان » ترتجف بشدة، كان الجو بارداً قارس البرودة، وقد تدنت الحرارة لأكثر من خمسة وعشرين درجة تحت الصفر

همست « ايمان » وهي ترتعد : إنني أكاد أتجمد

خلع « ماجد » سترته وغطى بها رفيقته فنظرت إليه بشكر عميق وتطلعت إلى قميصه الخفيف فوق جسده وقال باسماً : لا عليك لقد دربونا على درجة برودة أكثر من هذه

غمغمت وهي تضغط فوق يديه برفق : إنك لم تخيب ظن من أرسلك إلى هنا. ولا أظنك خيبت ظن أي انسان اعتمد عليك من قبل ووضع ثقته فيك.

— هذا صحيح تماماً يا سيدتي .. وهم عادة يرسلونني إلى المهام التي لا يريدون مني أن أخيب ظنهم فيها أبداً، والتي لا يتوقع أن ينجح في أدائها شخص آخر.

وشرعا يخترقان طرقات المدينة الهادئة الواسعة، وقادت « ايمان »

«ماجد» إلى منزل قريب وقالت له. إن لدينا صديقة هنا.

وطرقت باب المنزل، ففتحته سيدة عجوز. وما أن شاهدت «إيفانا» حتى اندفعت تحتضنها بشدّة وهي تبكي وتتحدّث بالروسية بسرعة. وسرعان ما شملهما المكان الدافئ وأسرعت العجوز تضع أمامهما الطعام والشوربة الساخنة. قالت «إيفانا» لـ«ماجد» باسمة إنها والدتي بالتبنّي. إنها واحدة من القلائل الذين يعرفون سر مولدي وهي تعيش هنا وحيدة بعد وفاة زوجها أبي بالتبني.

تساءل «ماجد» بشيء من القلق: ألا تخشين أن تشي بنا و.

فقاطعته «إيفانا» وهي تنظر إلى المرأة العجوز ذات الوجه الطيب:

إنك لا تعرفها.. إنها تحبّني كما لو كنت ابنتها. لقد كانت هذه المرأة هي همزة الوصل بيني وبين أخي كل هذه السنين. تأتيها رسائله فتحملها إليّ في «موسكو» متحمّلة مشاق الطريق. إني أحبها كما لو كانت أمي تماماً.

ومرت لحظات من الصمت وأغمضت «إيفانا» عينيها بإرهاق فربت «ماجد» فوق كتفيها برفق وقال لها: لم يحن أوان الراحة بعد يا عزيزتي.. لا يزال أمامنا سفر عاجل.

تطلّعت نحوه بقلق وتساءلت: أتنوي مغادرة البلاد الآن؟

— نعم.

— كيف.. إنهم على الحدود لا يسمحون بمرور قطة صغيرة. سوف يطلقون عليه الرصاص إذا ضبطوه

ابتسم «ماجد» وهو يقول: سوف نغادر البلاد بطريقة لا تخطر على بال أحد.. إنني دائماً أحب الطرق المبتكرة

تساءلت بدهشة: كيف؟

ضغط «ماجد» على يديها وهو يقول: ليس هذا وقت الأسئلة.. أين توجد محطة الأرصاد الجوية في هذه المدينة

— إنها على مشارف المدينة.. لماذا؟

— نرتدي كل ما يمكننا ارتداؤه من ملابس ثقيلة فهيا بنا فإن بقاءنا هنا خطر علينا.. فسوف يعثرون على طائرتنا في القريب وسيكتشفون مكاننا ومن ثم سيقلبون هذه المدينة رأساً على عقب بحثاً عنا

نهضت «إيمانا» بصمت وعانقت مربيتها العجوز، وارتدت سترتين صوفيتين تخصان المرأة العجوز تحت معطفها الثقيل، وغطى «ماجد» كتفيه بوشاح صوفي ثقيل وارتدى معطفاً ثقيلاً فوقه وخلعت «إيمانا» من إصبعها خاتماً ثميناً بفص ماسي دسته في يد المرأة العجوز لتعوضها عما أخذاه من ملابس لا تملك غيرها، ولم تتمالك نفسها وهي تحتضنها لآخر مرة في حياتها فأجهشت في البكاء بشدة.. وتلقفهما الطريق مرة أخرى فسارا في صمت

نحو محطة الأرصاد الجوية. وبعد ساعة كانا يدنوان من أسوارها

لم يكن هناك أي نوع من الحراسة، وتسلّل الاثنان عبر أسوار المحطة التي كانت تشغل مساحة متسعة من الأرض تحيط بها سياج حديدي وتناثرت الأبنية القليلة بداخلها.

وكان هناك أبراج ضخمة عالية وعدد من بالونات قياس سرعة الرياح واتجاهها في طبقات الجو العليا وكانت البالونات متوسّطة لا يزيد قطر الواحدة منها عن مترين وقد رُبطت إلى قواعد حديدية مثبتة في الأرض بحبال قوية.

تلفّت «محمد» حوله فوقع بصره على سلّة كبيرة من الخوص القوي المجدول تتسع لشخصين فظهر السرور على وجهه، وبسرعة أحضرها وأتى بحبال قوية ثبّتها في السلّة ثم ربط طرفها الآخر في ست بالونات.

تمتمت «نجلاء» دهشة: ماذا تنوي أن تفعل؟

رد «محمد» باسمًا: كما ترين، سوف نطير كما تفعل الطيور المهاجرة، ولست أشك بعدها أن الجنرال «باتشكو» سيمنع عبور الطيور المهاجرة فوق البلاد إلا بتصريح شخصي منه!

هتفت «نجلاء» بفرح: أتريدني أن أركب هذا الشيء وأطير به فوق الحدود؟

— ليس هناك من وسيلة أخرى . والريح مواتية الآن فهي تهب في الاتجاه الصحيح وسوف تدفعنا نحو خليج « فلندا » بسرعة مناسبة.

سألت « ايفانا » بذعر ألن يرصدونا فوق راداراتهم؟

— لحسن الحظ فان الذي صنع الرادار لم يضع خطة هروبنا في حسبانه فاكتفى بأن جعله يرصد الطائرات فقط.

وتقدّم نحو السلة فتبعته « ايفانا » بعد تردد قصير.. لقد تعلّمت أن تثق فيه.

إلتفت « ماجد » الى « ايفانا » باسماً وهو يقول : من المؤسف انهم لم يضعوا في هذه السلة أحزمة ليربطها الركاب عند الاقلاع، فأرجو أن تتشبثي جيداً بمكانك فإن اقلاعنا سيبدو خشناً قليلاً.

تشبّثت « ايفانا » « بماجد » الذي بدا أمامها رجلاً لا يعرف المستحيل ولا يعرو الخوف أو التردد قلبه أبداً وقطع « ماجد » الحبال التي تربط البالونات السته بقواعدها الحديدية بمديه أخرجها من جيبه، ومع آخر حبل انقطع اهتزّت السلّة بشدّة ثم اندفعت لأعلى والبالونات تحملها صاعدة إلى طبقات الجو العليا الباردة

وأخذت الأرض تبعد وتبعد وهما يعلوان وأخيراً استقرّت البالونات على ارتفاع يزيد عن خمسه آلاف متر، وأخذت الرياح

تدفعها نحو الشمال الشرقي، وألقى « ماجد » نظرة إلى ساعته وحسب سرعة الرياح وقال: سنبلغ الحدود السندية خلال ثلاث ساعات. هذا إذا لم تغيّر الرياح اتجاهها وسرعتها وظل حسن الحظ حليفنا.

اتسعت عينا « إيمانا » بذعر لا حد له عندما طاف في ذهنها خاطر مفاجئ وهتفت في ماجد: ولكن كيف سنهبط إلى الأرض مرة أخرى؟

هز « ماجد » كتفيه وهو يقول: إن من اخترع هذه البالونات لم يهتم بكيفية هبوطها، فهي عادة بعد أن تؤدي مهمّتها تدفعها الرياح إلى القطب الشمالي.. حيث تُدفن هناك إلى الأبد!

هتفت « إيمانا » بذهلة: القطب الشمالي؟ يا إلهي.. أي مصير ينتظرنا هناك؟

لم يرد « ماجد » واسترخى في السلة الكبيرة تاركاً للرياح والأقدار مهمة توجيه البالونات.

وانكمشت « إيمانا » وقد التفّت بمعطفها الثقيل وهي تعاني من البرد الشديد.

وأغمض « ماجد » عينيه كأنه قد غرق في النوم.. وبعد قليل غرقت « إيمانا » في النوم أيضاً برغم البرودة القارسة.

ومضى الوقت وفتح « ماجد » عينيه وألقى نظرة لأسفل.. لم يعد

للجميع أي أثر بأسفل، وظهرت الأرض فتألقت ملامحه بعلامات سرور وأيقظ «إيفانا» برفق وقال لها باسماً: لقد عبرنا الحدود بلا مشاكل. نحن الآن فوق الأرض الفنلندية

هتفت «إيفانا» بفرحة طاغية، وفجأة اندفعت نحوهما طائرة شرعية على مسافة قريبة مكّنت «ماجد» من أن يشاهد علامات الدهشة الطاغية التي ترتسم فوق وجه الطيار الشاب الذي هزّ رأسه بشدّة كأنه لا يصدّق ما يراه. ثم أسرع إلى جهاز اللاسلكي الصغير وراح يتحدّث فيه بصوت لاهث وهو يشير بيديه شارات مذعورة عصبية نحو البالونات الست التي تحمل سلة «ماجد» و«إيفانا» فلوّح له «ماجد» باسماً ثم التفت قائلاً لرفيقته

يبدو أننا سنواجه ترحيباً رسمياً عند هبوطنا، ولست أشك أن نصف قوات البوليس والجيش الفنلندي سيكونون بانتظارنا عند الهبوط. فالجميع هنا غير معتادين على استخدام البالونات في السفر وعبور الحدود، برغم أنها وسيلة رخيصة ولا تتطلب جهداً مسبقاً، كما أن أحداً لن يطلب منك الامتناع عن التدخين فيها!

تساءلت «إيفانا» بفرح: وماذا ستقول لهم لو علموا بالحقيقة فسوف يعيدوننا إلى..

قاطعها «ماجد» باسماً في ثقة. ومن سيخبرهم بالحقيقة. إن الروس لن يعترفوا أبداً أننا خدعناهم وغادرنا البلاد بهذه

الصورة، كما لا أظن أن السلطات الصينية ستعيدنا إلى هناك ما دمنا لم نفتح أفواهنا بشيء. إننا لن نعود أبداً إلى داخل الستار الحديدي.

تساءلت « إيمان » عن: ولماذا سنبرر للمسئولين هنا دخولنا البلاد بمثل هذه الطريقة؟

زم « ماجد » شفتيه كأنه يفكر بعمق ثم قال: ما رأيك في أن نخبرهم أننا كنا في القاهرة، وأردت أن أريك الأهرامات من أعلى بهذه البالونات ولكن الرياح كانت قوية قليلاً فدفعتنا إلى هذه البلاد؟

انفجرت « إيمان » ضاحكة وهي تقول: إنها فكرة رائعة. ترى كيف سيبدو شكل الأهرامات على هذا الارتفاع. سوف تكون أول شيء أراه عند وصولي إلى مصر.

وظهرت على البعد عدة طائرات حربية قديمة الطراز بالبالون فرفع « ماجد » يديه محيّياً، ثم التفت إلى « إيمان » قائلاً: لقد حان أوان هبوطنا.

وأخرج من جيبه مدية الصغيرة وقطع حبل واحد من البالونات الستة، فبدأت السلة بالونات الدقيقة تهبط متأرجحة لأسفل ثم ثبتت فوق ارتفاع ألفي متر وهي تندفع شمالاً. وقطع « ماجد » حبل بالون ثالث. ومع البالون الرابع راحت السلة الخوص تهبط لأسفل

سطح كأنها باراشوت. واستقرّت أخيراً براكبيها داخل سياج مزرعة صغيرة قد جلس أصحابها لتناول الافطار في ذلك الوقت من الصباح.

وما إن شاهد أصحاب المزرعة ذلك الشيء الهابط العجيب داخل مزرعتهم حتى أسرعوا نحوه وأحاطوا « بماجد » و « إيمانا » وهم يتحدّثون باللغة الهندية بسرعة مدهشة وهم يتحسّسون « ماجد » و « إيمانا » كأنهم لا يصدّقون أنهما بشر مثلهم. وقالت « إيمانا » « لماجد » بحيرة: لا أفهم شيئاً مما يقولون. ماذا سنقول لهم.. وماذا سنقول للمسئولين الذين سيهرعون إلى هنا بالمئات

رد « ماجد » باسماً وهو يربت فوق كتفيها: سنؤجل التفكير في ذلك لما بعد افطارنا. فهذا أول ما يجب أن نفعله. لقد كنت مشتاقاً دائماً لتذوّق الزبدة الهندية.. لا أظن أنني سأترك مثل هذه الفرصة دون اغتنامها.

واتّجه إلى مائدة الطعام فتبعته « إيمان » وقد خفّ قلقها، وراح الاثنان يأكلان بشهية على حين حملق صاحب المزرعة وزوجته وأولاده في « ماجد » و « إيمانا » بذهول كأنهما يشاهدان جنّي مصباح علاء الدين!

ومن بعيد تعالت أصوات سيارات الشرطة صاخبة عالية، مما ينذر بوصول رتل منها لا يقل عن العشرات. وتبعتها أصوات هادرة لدبابات ثقيلة!

واندفع رجال الشرطة بالمئات وعشرات المسئولين داخل المزرعة فلوّح لهم « ماجد » قائلاً . مرحباً أيها السادة . لماذا لا تأتون وتشاركوننا افطارنا؟

وبرز وجه السيد « م » من وسط عشرات المسئولين باسماً واثقاً، وغمز له « ماجد » بعينيه والتفت إلى « ايفانا » قائلاً : لقد صار
كل شيء على ما يرام لقد كانت عيون السيد « م »
تتبعنا في كل مكان وحتى لحظة هبوطنا، وقد جاء في
الوقت المناسب ليعفينا عن الردود على الأسئلة المحرجة.

تساءلت « ايفانا » بدهشة ومن هو السيد « م »؟

رفع « ماجد » حاجبيه بدهشة قائلاً . ألم أخبرك من هو السيد « م »
يا لي من مقصّر ربما أخبرك عنه يوماً ما بعد خمسين
عاماً.. والآن ما رأيك في الزبدة الملدية، أليست لذيذة
حقاً، اني أفكّر في شراء عدة ارطال لأهديها إلى جدّتي
فقد وعدتها بهدية صغيرة عند عودتي، مع أطيب تمنياتي
من بلاد الثلج والجليد.

ولكن، كانت هناك مفاجأة أخيرة « لماجد »، عندما شاهد الجنرال « باتشكو » يتقدّم متأبّطاً ذراع السيد « م » رئيسه، والاثنان يبتسمان في سرور واعجاب.

ورفع الجنرال قبعته « لماجد » محيّياً وقال : كان صراعاً

موقفاً وأظن أنهم سيدرّسون لطلبتنا تلك الوسيلة المبتكرة في الهروب من المآزق.. وربما يرغب رجالي في أن تتعاون معهم يوماً ما، فإن الرجال الأفذاذ قلائل في هذا العالم.

وهنا فقط أدرك « ماجد » أن خروجه سالماً من « روسيا » كان بتدخّل من الجنرال « بانشنكو » شخصياً، وان كل شيء كان يجري تحت سمعه وبصره، وان هناك صفقة قد تمّت بينه وبين السيد « م » لخروج « ماجد » حياً من البلاد، وربما لولا ذلك ما ذاق « ماجد » الزبدة الفنلندية أبداً!!

هذه العملية :

الهروب المثير

ككل مرة ينجو « ماجد » من الموت بطريقة مبتكرة.. ولكنه لا يزال مطارداً من أقوى ثلاث أجهزة مخابرات في العالم..

وأخيراً يعثر « ماجد » على الميكروفيلم.. ولكن يضاف اليه راقصة البولشوي الشهيرة « ايفانا بافلوفا ».. والتي تشترط على « ماجد » أن يقوم باخراجها من البلاد لتعطيه الميكروفيلم.. في الوقت الذي تتحوّل فيه حدود البلاد إلى طوق حديدي يستحيل الخروج منه..

ولكن « ماجد » يحطّم المستحيل ويغادر البلاد.. بطريقة لم تخطر على بال اعدائه.. ولم يفكّر فيها انسان من قبل.


تحيا مصر
تاريخ
مصر


BLUE BIRD
Scan By : M.Raafat & Rabab